تاريخ الدعوة

الدكتور محمد إبراهيم الجيوشى
العميد الأسبق لكلية الدعوة الإسلامية
جامعة الأزهر

الناشر
دار العلم والثقافة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خيرته من خلقه سيدنا محمد وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين، الذين اصطفاهم الله واجتباهم، وأمرنا بالاقتداء بهم فى كتابه الكريم فقال - عز من قائل -: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[1] وجعل فى سيرتهم وقصصهم عبرة لأولى الألباب، فقال - سبحانه - : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[2] واتباعا لهذا التوجيه الإلهى الكريم أخذاً للدرس والعبرة من سيرتهم - عليهم الصلاة والسلام - فإننا نبدأ - بعون الله وتوفيقه - فى الوقوف مع بعض مراحل دعواتهم على ضوء ما جاء منها فى كتاب الله الكريم، نتعرف على المناهج التى اتبعوها، والأساليب التى أخذوا بها، ونستنتج الدروس والعبر من مواقفهم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -. . .

أولو العزم:

ولما كان الإلمام بدعواتهم جميعا يحتاج إلى زمن أوسع قد يستغرق سنوات فإننا سنقتصر فى تناولنا لدعواتهم فى هذا العرض السريع على أولى العزم من الرسل، وهم: أبو البشر الثانى نوح - عليه السلام - وأبو الأنبياء خليل الله إبراهيم - عليه السلام - وكليم الله موسى - عليه السلام - وكلمة الله عيسى - عليه السلام وخاتمهم محمد ﷺ وذلك لأنهم كانوا أكثر الأنبياء صبرا وجهداً، وأشدهم عزما،

(١) الأنعام، من الآية: ٩٠
(٢) يوسف، الآية: ١١١

وأسماهم تضحية، وأكثرهم عملا دائبا فى الحرص على هداية أقوامهم، وضرب الأمثلة لمن يأتى بعدهم وينهج نهجهم.

تمهيد:

وتحديد أولى العزم من الرسل مأخوذ من قول الله - تعالى - فى سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾(١) ومن قوله - عز شأنه - فى سورة الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾(٢).

دين الله واحد:

ودين الله واحد، جاء به الأنبياء جميعا، ودعوا إلى التوحيد وإلى عبادة الله وحده، ودينهم هو الإسلام: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (٣)، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾(٤).

وقد حدثنا القرآن الكريم عن بعض الأنبياء الذين ينسبون أنفسهم إلى الإسلام، أو يصفهم القرآن بأنهم مسلمون، فيقول عن إبراهيم - عليه السلام -: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٥)، ويحكى القرآن أن كلا من إبراهيم ويعقوب - عليهما السلام - قد وصيا أبناءهما بأن يكون الإسلام دينهم الذى يلقون الله عليه، يقول - سبحانه -:

---

(١) الأحزاب، الآية: ٧

(٢) الشورى، الآية : ١٣

(٣) آل عمران، من الآية: ١٩

(٤) آل عمران، من الآية: ٨٥

(٥) آل عمران، الآية: ٦٧

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1]، وكذلك كانت وصية يعقوب الأخيرة لبنيه حين حضرته الوفاة، يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[2].

وكذلك كانت دعوة يوسف ـ عليه السلام ـ أن يتوفاه الله على الإسلام؛ حيث يقول الله على لسانه: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾[3] ومن قبل كان نوح ـ عليه السلام ـ قد أعلنها صريحة لقومه بعد أن أعرضوا عن دعوته، فقال: ﴿.. إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[4] وموسى ـ عليه السلام ـ يستحث قومه على التوكل على الله إن كانوا مسلمين، قال ـ تعالى ـ: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾[5].

وكذلك كانت دعوة سليمان ـ عليه السلام ـ إلى الإسلام حين وجه رسالته إلى ملكة سبأ حين قال: ﴿ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾[6]، وكذلك كانت إجابة ملكة سبأ أنها أسلمت لله رب العالمين: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى

---

(١) البقرة، الآية: ١٣٢

(٢) البقرة، الآية: ١٣٣

(٣) يوسف، الآيه: ١٠١

(٤) يونس، من الآية: ٧٢

(٥) يونس، الآية: ٨٤

(٦) النمل، الآية: ٣١

﴿وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين﴾(1) وكانت دعوة عيسى ـ عليه السلام ـ دعوة إلى الإسلام، وإقرار الحواريين بأنهم مسلمون، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾(2).

الحكمة من تعدد الرسل:

إذا كان دين الله واحدا وهو الإسلام فلم تعددت الرسالات والرسل؟

وفى الإجابة عن هذا التساؤل نقول: إن البشرية فى أول أمرها كانت محدودة الثقافة، قليلة التجربة، فكانت الحكمة تقتضى أن يقدم لها ما يتناسب مع مقدرتها الفكرية وتجربتها المحدودة، وتتابع الرسل إلى أقوامهم يزيدون من ثقافاتهم، ويوسعون من دائرة تجاربهم بما يلقونه إليهم من علم الله الذى أفاضه عليهم، إلى أن بلغت الإنسانية رشدها، وأصبحت قادرة على استيعاب الرسالة الكاملة جاءت رسالة خاتم الأنبياء محمد ﷺ لتكون عامة وشاملة، وباقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، واقتضت الحكمة الإلهية أن تكون الرسالة الخاتمة مهيمنة على الرسالات السابقة وناسخة لها، ومصدقة لها، فالله سبحانه يقول: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾(3).

واقتضت حكمة الله ـ سبحانه ـ أن يتولى حفظ كتابه ورسالته الخاتمة؛ لتكون بمنجاة من التحريف والتبديل والزيادة والنقص، وذلك فى قوله ـ سبحانه ـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(4) أما الكتب السابقة فقد وكل حفظها إلى البشر.

---

(1) النمل، الآية: ٤٤

(2) المائدة، الآية: ١١٤

(3) المائدة، الآية: ٤٨

(4) الحجر، الآية: ٩

والبشر يعتريهم النسيان والضعف والخطأ، فما وكل إليهم حفظه عرضة لذلك، أما ما وكل إلى الله ـ تعالى ـ فهو مبرأ من ذلك.

وفى إسناد حفظ الكتب السابقة إلى البشر يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿.. بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾(١).

من أجل ذلك كان القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد فى العالم الذى سلم من التحريف والزيادة والنقص.

وإذا كان الله ـ سبحانه ـ قد أرسل أنبياءه ورسله على مدى العصور ليعلموا الناس ويهدوهم إلى طريق الرشاد، ولئلا يكون لهم حجة يحتجون بها إذا لم يهتدوا، وفى ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(٢) فإننا فى حاجة إلى أن نقف مع دعوات هؤلاء الأنبياء والرسل، نأخذ منها الدرس والعبرة، وسيقتصر تناولنا على دعوات أولى العزم كما سبق أن أشرنا إلى ذلك.

ولكن ما عرضناه من أن الإسلام هو دين الأنبياء جميعا يدفعنا إلى أن نتجه بالبحث وجهة أخرى، يدفعنا إليها تساؤل ينشأ فى النفوس خلاصته: التعرف على نشأة العقيدة عند البشر، وعلى الرغم من أن الإجابة عن هذا التساؤل واضحة جلية من وجهة النظر الإسلامية؛ لأن الله لما خلق آدم أبا البشر أوحى إليه وعلمه، إلا أن الباحثين فى نشأة العقائد من الغربيين لهم آراء أخرى قائمة على الحدس والتخمين، وليس لها أصل قائم على الدليل والحجة، وعلى الرغم من رفضنا لهذا الاتجاه عند الباحثين الغربيين فإننا سنقدم هذه الآراء ونعقب عليها

(١) المائدة، من الآية: ٤٤

(٢) النساء، الآيات: ١٦٣ ـ ١٦٥

بالنقد والكشف عن خطئها ومخالفتها لما جاء به الوحى المنزل من عند الله رب العالمين، فالحق هو الذى جاء به الإسلام من أن الدين فطرة فطر الله الناس عليها، كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(١) وفيما يلى عرض مفصل لنشأة العقيدة عند البشر.

وقبل أن ننتقل إلى البحث فى نشأة العقيدة، فإننا نود أن نشير بوضوح إلى أن دعوة الأنبياء جميعا كانت دعوة إلى التسامح والسلام والمحبة، وإلى احترام حقوق الإنسان وحرمة دمائه وماله وعرضه؛ التزاما بقول الله ـ سبحانه ـ: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾(٢).

فالذين يسمحون لأنفسهم أن يروعوا الآمنين ويسفكوا دماء الأبرياء، ويعتدوا على ممتلكاتهم يخالفون دعوة الله، ويحاربون الله ورسوله؛ لأنهم خالفوا توجيهات القرآن الكريم، وخرجوا على دعوة النبى ﷺ حينما قال فى خطبة الوداع: «إنَّ دماءَكُمْ وأَموالكُمْ وأَعْراضكُم حَرامٌ عَلَيكُمْ كحُرْمة يوْمكُمْ هذَا في شَهرِكُمْ هَذا فِي بَلَدكُمْ هَذا».

وقد أساءوا إلى الدين بما ادعوه زورا وبهتانا أنهم قاموا باسم الدين، والدين منهم براء؛ فليس فى الإسلام عنف، وليس فى الإسلام إزهاق للأرواح، وليس فى الإسلام ترويع للآمنين، ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾(٣).

والذين يقدمون على العدوان على الأنفس جزاؤهم جهنم، وقد توعدهم الله أشد الوعيد فى قوله: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴾(٤).

---

(١) الروم، الآية: ٣٠

(٢) النحل، من الآية: ١٢٥

(٣) سورة الطلاق، من الآية: ١

(٤) النساء، من الآية: ٩٣

نشأة العَقيدة الدينية
عند البشر

تعريف كلمة دين:

قد يكون من المفيد أن نتعرف على المعانى التى تفيدها كلمة (دين) فى اللغة العربية، ثم نتلمس العلاقة التى تربط بين هذه المعانى المختلفة، وأسباب الاختلاف فى دلالتها على معان متعددة، ومِنْ تتبع كلمة (دين) فى كتب اللغة نرى أنها تستعمل فى معنى السلطان والغلبة والملك والقهر والقضاء والطاعة والعبادة والمذهب والشريعة والملة والحكم والسيرة والتدبير والتوحيد.

وقد جاء فى اللسان: الدين مفرد، جمعه: أديان، يقال: دان بكذا ديانة وتديَّن به، فهو دِيِّنٌ ومتدين، ودانه ديناً، أى: أذله واستعبده.

والدين: ما يتدين به الرجل، **والدين**: السلطان والورع والطاعة(1).

وفى القاموس: الدين: الجزاء والعادة والعبادة والطاعة والذل والداء والحساب والقهر والغلبة والسلطان والاستعلاء والملك والحكم والسيرة والتدبير والتوحيد، واسم لجميع ما يتعبد الله به، والملة والورع(2).

وقد أشار الدكتور محمد عبد الله دراز إلى أسباب اختلاف المعانى التى جاءت لها الكلمة، ويرجع ذلك إلى الفعل الذى ترجع إليه الكلمة، فإما أن يكون متعديا بنفسه، أو متعديا باللام، أو بالباء.

---

(1) لسان العرب، ج١٧ ص٢٨

(2) القاموس المحيط، ج٤ ص٢٢٥

فإن كان الفعل متعديا قلنا: دانه دينا، وكان المقصود بذلك أنه ملكه وحكمه وساسه وقهره ودبره وحاسبه وقضى فى شأنه وجازاه وكافأه، فتكون كلمة (دين) حينئذ دائرة على معنى المِلْكِ والتصرف بما من شأنه السياسة والتدبير والحكم والقهر.

وإذا كان الفعل متعديا باللام بأن قلنا: دان له، فإنه يراد بذلك أنه أطاعه وخضع له، فالدين هنا يعنى الخضوع والطاعة والعبادة والورع.

وإذا كان الفعل متعديا بالباء بأن قلنا: دان به، فإن معناه أنه اتخذه ديناً ومذهباً، فالدين هو المذهب والطريق.

وخلاصة ذلك: أن الفعل (دان) إذا كان متعديا بنفسه كان المعنى الأصلى للدين هو الملك والحكم والقهر والتدبير.

وإن كان الفعل متعديا باللام كأن نقول: دان له، كان معنى الدين: الطاعة والخضوع والعبادة والورع.

وإن كان الفعل متعديا بالباء كأن نقول: دان به، فهذا يعنى أنه اتخذه ديناً ومذهباً وطريقاً.

والدين بمعنى التوجه بالعبادة إلى الله، والطاعة لأوامره، والخضوع لإرادته، واتباع الطريق الذى أمر باتباعه يجمع معانى الفعل (دان) فى حالاته الثلاث.

وقد جرى على ألسنة الباحثين فى علم الأديان اصطلاحات: مثل تاريخ الأديان، وفلسفة الأديان، وتاريخ الأديان المقارن، وعلم الأديان.

فهل هذه مسميات لشىء واحد، أم أن لكل منها معنى مغايراً لمعانى الاصطلاحات الأخرى؟ وفيما يلى تحديد لكل منها:

فتاريخ الأديان المقارن: يدرس خصائص ومميزات الأديان.

وفلسفة الأديان: تبحث فى العلاقات بين الأسس التى تستند إليها الأديان المختلفة، وفى الغايات التى تهدف إليها، ويدخل فى مباحثها علم ما وراء الطبيعة، وعلم الكلام، وعلم التصوف.

وتاريخ الأديان: يبحث عن نشأة المعتقدات الدينية وتطورها، ومرتكزاتها لدى الشعوب البدائية المختلفة، والشعوب المتمدينة، فالغرض من دراسة تاريخ الأديان هو معرفتها.

وعلم الأديان: يبحث عن منشأ الأديان وتطورها، وفى الأسس التى ترتكز إليها الأديان المختلفة، وفى أوجه الاختلاف والاتفاق فيما بينها.

وبعبارة أخرى: يناقش تاريخ الأديان ويوضح فلسفتها ويوازن بينها(١).

تصنيف الأديان: هناك تصنيفات متعددة للأديان، فهناك من يقسمها إلى:

أديان ملهمة أو مُوحًى بها: مثل الإسلام واليهودية.

وأديان مطلقة أو كاملة: وأدخلوا فيها المسيحية.

وهناك من قسمها إلى:

أديان أخلاقية: وهى أديان البدائيين.

وإلى أديان منقذة: وأدخل فيها البوذية والمسيحية.

وهناك من قسمها إلى:

أديان عالمية مثل: الإسلام والمسيحية.

وأديان قومية مثل: اليهودية والأديان البدائية(٢).

فطرة الله:

فطر الله الإنسان على التدين، وركز فى وجدانه الإيمان بأن هناك خالقاً لهذا الكون مدبراً له ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾(٣).

فالدين صنو الإنسان على هذه الأرض.

وقد أخبرنا الله سبحانه فى كتابه أنه أخذ العهد على بنى آدم جميعاً، وهم فى

(١) الأديان، ص١٨

(٢) الأديان، ص٢٦، ٢٧

(٣) سورة الروم، من الآية: ٣٠

(عالم الذر)، وأشهدهم على أنفسهم إقراراً بربوبيته، فقال ـ عز من قائل ـ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾(١).

ولم يترك الله الخلق بدون هداة يأخذون بأيديهم، ويبصرونهم طريق الرشاد، بل تعهدهم بالأنبياء والرسل حتى يحولوا بينهم وبين البعد عن الطريق القويم كما قال ـ سبحانه ـ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(٢) وزود آدم أبا البشر منذ البداية بنور وحيه، وحباه من علمه ما ظهر به فضله على الملائكة كما تقص ذلك سورة البقرة:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣٢ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾(٣).

غير أن الإنسان دائما ينسى، وينساق وراء بعض المظاهر التى تستولى على لبه، أو تثير دهشته، فيحمل لها نوعاً من التقدير لا يلبث أن يتحول مع الزمن إلى عبادة وتقديس، فيؤدى ذلك إلى انحراف فى التعبير عن الفطرة المركوزة فى كيانه، وهكذا عرفت البشرية كثيراً من ألوان هذا الانحراف، فقدست الشمس والكواكب والنار، وبعض الحيوانات، والأنهار والأشجار التى ظنت أن لها تأثيراً فى جلب النفع إليها، أو دفع الضرر عنها، ومن أجل ذلك تعددت معبودات البشر، واتخذوا عدداً من الآلهة جعلتهم يغفلون عن التوجه بالعبادة للإله الحق،

(١) سورة الأعراف: ١٧٢

(٢) سورة فاطر: ٢٤

(٣) سورة البقرة: ٣٠ ـ ٣٣

وكلما جاء رسول يقوِّم من انحرافهم، لا يلبثون أن يعودوا إلى الانحراف فى تصور الإله بمرور الزمن، غير أن الإيمان بالإله الخالق كامن فى الطبيعة البشرية ملازم لها منذ أن خلقها الله، وليس من باب الصدف أن تجد البشر جميعاً ـ على بعد أماكنهم واختلاف مستوياتهم الفكرية ـ يؤمنون بفكرة الإله، وإن كان إيماناً يشوبه الخطأ فى التصور الصحيح للإله الحق.

ومن الممكن أن توجد شعوب ليس لها آداب، ولا علوم، ولا فلسفات، ولكنه ليس ممكناً أن توجد جماعات بدون دين؛ لأن التدين غريزة وجدت مع الإنسان منذ البداية.

وقد قال هنرى برجسون: «لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وآداب وفلسفات، ولكنه لم توجد قط جماعة بغير دين».

ويقول الأستاذ العقاد فى كتابه (الله): «ففى الطبع الإنسانى جوع إلى الاعتقاد كجوع المعدة إلى الطعام...» إلى أن يقول:

«حق لا يقبل المراء أن الحاسة الدينية بعيدة الغور فى طبيعة الإنسان. وحق لا يقبل المراء أن الإنسان يجب أن يؤمن، ولا يستقر فى وسط هذه العوالم بغير إيمان، وهو قد وجد وسط هذه العوالم لامراء.

فإذا كان الإيمان هو الحالة التى يتطلبها منه وجوده، فضعف الإيمان شذوذ يناقض طبيعة التكوين، ويدل على خلل فى الكيان، وقد اتفق علماء المقابلة بين الأديان على تأصيل العقيدة الدينية فى طبائع بنى الإنسان من أقدم أزمنة التاريخ[1].

وعلى الرغم من وضوح حقيقة ملازمة التدين للإنسان منذ البداية، فقد وجد فى القرن الثامن عشر الميلادى بين كتاب أوروبا من ينازع فى ثبوت هذه الحقيقة، وذهبوا إلى أن الديانات أمور استحدثت فى عصور لاحقة!!

وقد عرض الدكتور محمد عبد الله دراز لهذه الآراء فى كتابه (الدين) وناقشها ورد عليها، وأوضح أن كتاب القرن الثامن عشر إنما يرددون مقالات قديمة جرت على ألسنة السوفسطائيين القدماء الذين ادعوا أن الإنسان فى مبدأ أمره كان يعيش

(١) كتاب.. الله.. ص٨، ٩ دار المعارف، الطبعة الثانية.

منطلقاً لا يخضع لقانون، ولا تحكمه قيم أخلاقية، ولم يكن يخضع إلا لقوة يخاف بطشها، ويحسب حسابها، وكانت الفوضى هى مظهر حياته، فلما سنت القوانين وشرعت عقوبات لمن يتخطى الحدود التى أباحت التصرف فى دائرتها امتنع الناس عن الفوضى علناً خوفاً من العقاب، ولكنهم لم يكفوا عن مباشرة الجرائم المستترة مادامت يد القانون لم تمسك بهم، فأعمل بعض المفكرين أذهانهم ليجدوا وسيلة تحمل الناس على الكف عن ارتكاب الجرائم خفية مادام القانون لم يصل إليهم، وانتهى بهم التفكير إلى إقناع جماهير الناس أن فى السماء قوة أزلية أبدية ترى وتسمع وتهيمن على كل شىء، وهكذا ـ فيما يزعمون ـ نشأت فكرة الدين(١).

ولاشك أن هذا التصور الذى نقله الدكتور دراز عن الباحثين الغربيين أمر مرفوض من ناحية النظرة الإسلامية التى تؤمن أن الدين فطرة فى الإنسان كما أشارت إلى ذلك آيات القرآن الكريم.

وخلاصة ما نراه: أننا نرى أن الدين صنو الإنسان على هذه الأرض، وأنه وجد منذ وجد الإنسان الأول، وهو آدم أبو البشر الذى عرف التوحيد وعلمه بنيه، إلا أن تطاول الزمن جعل الإنسان يغفل عن التوحيد مأخوذاً ببعض المظاهر التى كان يخشى منها، ثم انتقل من الخشية إلى الاحترام، ثم انتقل إلى تقديسها وعبادتها ظنا منه أن لها قدرة على النفع والضر.

وعلى ضوء ما تقدم نقرر الحقائق التالية:

(أ) التدين طبيعة فى البشر خلقهم الله عليها وركزها فى طبيعتهم.

(ب) أن الإنسان عرف الوحدانية والإله الواحد منذ البداية عن طريق وحى الله لآدم ـ عليه السلام ـ الذى علمه بنيه من بعده وتوارثوه جيلا عن جيل.

(ج) أن اتخاذ آلهة متعددة أمر طارىء على الأصل الذى هو الإيمان بالله الواحد، وأن ذلك نشأ بتطاول الزمن وانبهار الإنسان ببعض المظاهر الكونية من حوله، تلك المظاهر التى ظن ـ خطأ ـ أنها قادرة على جلب نفع له أو إيقاع ضرر به.

---

(١) راجع كتاب (الدين) للدكتور محمد عبد الله دراز، ص٨٠ ـ ٨٢ الطبعة الثانية، نشر دار القلم بالقاهرة سنة ١٩٧١م.

(د) أن الله - سبحانه وتعالى - تعهد البشر من وقت لآخر بإرسال رسله وأنبيائه - عليهم السلام - ليقوِّموا العقائد المنحرفة ويعيدوا الإنسانية إلى الطريق الصحيح والدين الحق، وصدق الله حين يقول:

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَالَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ۚ ﴾(١).

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ﴾(٢).

* * *

(١) سورة الشورى، من الآية: ١٣

(٢) سورة الأنعام، من الآية: ١٥٣

رأى علماء الغرب فى نشأة الدين

على الرغم من وضوح نشأة الدين وكونه جزءا من الفطرة الإنسانية، فإن الباحثين فى أصل الأديان ونشأتها من علماء الغرب يرون أن التدين عند الإنسان يرجع إلى أسباب أخرى نلخصها فيما يلى:

١ ـ يذهب كثير من الباحثين إلى أن (**الأساطير هى أصل الدين**) وبخاصة بين الهمج، ولعل السبب فى اعتناق كثير منهم لهذا الرأى أنهم رأوا أن العقائد الهمجية قد امتزجت بالأساطير عند جميع القبائل البدائية، ولأن هذا الامتزاج قد حصل بالفعل، فإننا نرى الأستاذ العقاد فى رده هذا الرأى يقول: «فلا يسهل من أجل هذا أن نرفض القول بالعلاقة بين الأسطورة والعقيدة، ولكن لا يسهل من جهة أخرى أن نطابق بين العقيدة والأسطورة فى كل شىء وفى كل خاصة؛ لأن العقيدة قد تحتوى الأسطورة، ولكن الأسطورة لا تحتويها، إذ يشتمل عنصر العقيدة على زيادة لا يشتمل عليها عنصر الأسطورة، وهى زيادة الإلزام الأخلاقى، والشعور الأدبى بالطاعة والولاء، والأمل فى المعونة والرحمة من جانب الرب المعبود»[1].

٢ ـ رأى تايلور TYLOR:

ويذهب تايلور إلى أن (**الإنسان البدائى كالطفل فى نظرته للأشياء وتخيله لها فى صور الأحياء**) فكما أن الطفل يتعامل مع الجمادات دائماً من حوله مضفيا عليها صفة الحياة إما فى حالة الرضا، وإما فى حالة الغضب، فهى محببة إليه

(١) راجع كتاب (الله) للأستاذ العقاد، ص٩، ١٠ وراجع أيضا كتاب (الدين) للدكتور محمد عبد الله دراز، ص١٣٣ طبع دار القلم ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

مقربة عنده فى حالة الرضا، وهى بغيضة إليه بعيدة عنه فى حالة الغضب، فكذلك الإنسان الأول فى نظرته إلى الأشياء من حوله، ولهذا كان تقديسه للنجوم والقمر والرياح، والسحب والينابيع، وما يعرض له من أحداث الطبيعة التى تسبب له سروراً أو حزنا، خوفا أو أمناً، وقد تعامل معها جميعاً على أنها أحياء لها كل مميزات الأحياء من سمع وبصر وغذاء ومتاع، ولهذا كان إحساس الإنسان البدائى بها إحساس الرهبة والرغبة، ومن أجل ذلك شعر بحاجته إلى استجلاب رضاها بالصلاة والدعاء وتقديم القرابين.

٣ ـ رأى سبنسر:

ويرى سبنسر أن الإيمان بحياة الأرباب ناشىء عن عبادة الأسلاف التى يراها أقدم العبادات، وكانت رؤية الأطياف فى النوم تجعله يظنها باقية ترجى وتخشى، وأنها تتقاضاه فروضا لها عليه كفروض الآباء على الأبناء وهم على قيد الحياة، وعلى الرغم من أن الأستاذ العقاد ينسب هذا الرأى إلى «سبنسر» فإن الدكتور دراز ينسبه إلى تيلور وأتباعه(١).

ويرد الأستاذ العقاد على هذا الرأى فيقول: «ولكن يرد على القول بعبادة الأسلاف أنها لم تستغرق عبادات الأقدمين فى زمن من الأزمان، وأن النائم يرى أطياف الغرباء كما يرى أطياف الآباء، ويرى أطياف الأطفال الضعفاء، بل يرى أطياف السباع التى يخافها فى يقظته فلا يعبدها؛ لأنه يخافها، وتتردد عليه أطيافها «بل يقتلها ويحول بينها وبين الطعام».

«ومهما يبلغ من قصور العقل عند الهمج، فهم لا يجهلون أن الروح الذى يحوم حولهم فى طلب الطعام والشراب يحتاج إليهم، ولا يستغنى عنهم، فإن شاءوا منعوا عنه القوت فأردوه، وإن شاءوا والوه بالقوت فأبقوه، ولو لم يكن محتاجا إليهم لما حام حولهم ولا انتظر منهم أن يسترضوه بإشباعه وإروائه، ولماذا لا يسعى لنفسه كما كان يسعى لها وهو مقيم؟».

ثم يتابع الأستاذ العقاد مناقشة هذا الرأى فيقول:

---

(١) راجع كتاب (الدين) ص١٣٣

«إذا كان الهمجى كالطفل ينظر إلى جميع الأشياء كنظرته إلى الحى الذى يقصد ما يفعل، ترى لماذا لم يعبد الهمجى جميع الأشياء؟! ويرى أنه قد عرف قبل العبادة وصفاً للربوبية تتميز به بعض الكائنات عما سواها».

والذين قاموا برحلات إلى أفريقيا الوسطى والتقوا بالأقزام هناك - وهم فى أدنى درجات الهمجية - عرفوا من دراستهم لأمورهم أنهم يؤمنون برب عظيم فوق الأرباب(١).

٤ - **(ويذهب بعض الباحثين إلى أن السحر هو أصل العبادة، وأصل الشعائر الدينية)** ولو أمعنا النظر لوجدنا أن السحر صنعة السحرة والكهان الذين يقومون على خدمة الآلهة، فكيف يقال: إن السحر هو أصل العبادة، وهو لم ينشأ إلا على أيدى سدنة الآلهة الذين يدعون أنهم قريبون منها عليمون بما يرضيها ويغضبها؟

ومن المسلم به منذ القدم أن طبيعة السحر تختلف عن طبيعة العبادة؛ لأن مجال السحر دائماً مرتبط بالأساليب المنحطة والأمور الخبيثة والأشياء البغيضة المستقذرة التى تكرهها النفوس وتعافها.

أما العقيدة فهى دائما طريق إلى الخير، وتوجه بالرجاء إلى الإله طمعا فى النيل من كرمه، وهو دعوة إلى التطهر، على النقيض من أساليب السحر الخبيثة، وقد ميز الناس منذ قديم بين السحر والعبادة، فاتخذوا ما يرجى من الآلهة أربابا يتوجهون إليها بالعبادة، واتخذوا أرباب الشر والفساد أعواناً على السحر(٢).

٥ - ويذهب غالبية الباحثين فى الأديان من الأوروبيين إلى **(أن الضعف الإنسانى هو الأصل فى نشأة العقائد الدينية)** لأن الإنسان لما أبصر نفسه ضعيفاً أمام مظاهر الكون، بما فيه من أحياء، وقوى طبيعية احتاج إلى سند يستشعر الأمن والطمأنينة فى حماه، فابتدع فكرة الإله، يعتمد عليه، ويتوجه إليه بالدعاء والصلاة كلما خشى عدوان الآخرين عليه.

---

(١) كتاب (الله) ص١١

(٢) راجع كتاب (الله) ص١٢

ولو تمشينا مع هذا الرأى قليلا لكان معنى ذلك أن الضعفاء من الناس هم المتدينون، أما الأقوياء فليسوا متدينين، وهذه قضية ينقضها الواقع التاريخى منذ أقدم العصور، فأصحاب العقائد والأديان هم الأقوياء فى أخلاقهم وإرادتهم وعزائمهم، وهم المستعدون دائماً للتضحيات الجسام، وذوو المقدرة على مواجهة الصعاب، والصبر على الشدائد مما لا يقدر عليه إلا الأقوياء الأشداء، أما غير المتدينين فلم يعرف عنهم ما عرف عن المتدينين من صلابة وقوة فى الحق لا تلين، وهذا الواقع البديهى يقضى على الرأى القائل: بأن العقيدة الدينية ملجأ الضعفاء قضاء مبرما، وينقضه من أساسه.

وفى التدليل على صحة ما استنتجناه:

يقول الأستاذ العقاد: «فليس معدن الإيمان من معدن الضعف فى الإنسان، وليس الإنسان المعتقد هو الإنسان الواهى الهزيل، ولا إمام الناس فى الاعتقاد هو إمامهم فى الوهن والهزال، وربما كان الأصح والأولى بالتقرير والتحقيق أن العقيدة تعظم فى الإنسان على قدر إحساسه بعظمة الكون، وعظمة أسراره وخفاياه، لا على قدر إحساسه بصغر نفسه وهوان شأنه.

ومن هنا تكون الحاسة الدينية مجاوبة صحيحة للوجود العظيم الذى يحيط بالإنسان سرمديا بعيد الأغوار عميق القرار.

فليس الكيان الصحيح هو الذى يمر بهذا الوجود السرمدى كأنه لا يراه، ولا يهتز له ولا يستجاش من أعماقه إذا سبر غوره فقصر عن مداه.

وإنما الكيان الصحيح هو الذى يجيش بتلك الحاسة القوية، فيستهول الكون، ويستقبله بالحيرة والتقديس؛ لأنه فى الواقع هائل محير جامع لمعانى القداسة من حيث نجمت فى لغة اللسان أو لغة الضمير.

وعلى هذا تكون العقيدة من مصدر الصحة؛ لأنها تجارب الوجود المحيط بالنفس الإنسانية، ولا تكون من مصدر النقص والغفلة عن حقائق الأمور[1].

---

(١) راجع كتاب (الله) ص١٣

وقريب من الرأى السابق رأى فرويد Freud الذى يقول: إن العقيدة الدينية نشأت من الشعور بالخوف الممزوج بالعاطفة الجنسية عند بعض أصحاب الأعصاب السقيمة، والذين يغلب عليهم الهوس فى اعتقادهم، ويرى أن الحب الإلهى هو بمنزلة الحب الجنسى فى حالة التسامى أو حالة الحماسة(١).

٦ ـ **الطوطم**: نظراً لما لاحظه الباحثون من انتشار فكرة الطوطم بين القبائل الهمجية فى القارات المختلفة: فى أفريقيا واستراليا والأمريكتين، وبعض بلاد آسيا وجزرها، فقد ذهب جماعة من العلماء إلى الربط بين الطوطم والدين، وهم لهذا يرون (أن الطواطم هى بداية الأديان عند الهمج).

وقد نشأت فكرة الطوطم من اعتقاد بعض القبائل أن أباها الأعلى قد حل فى حيوان أو نبات أو حجر فتقدسه، وفى حالة الزعم بحلول الأب فى الحيوان تدعى القبيلة أن هذا الحيوان أب لها، وفى هذه الحالة يحرمون قتل هذا الطوطم وأكله، وكذلك يحرمون الزواج بين الذكور والإناث المنتمين إلى طوطم واحد، وإذا كانت القبيلة كبيرة العدد، وكانت تشتمل على عدد من البطون اتخذ كل بطن منها (طوطما) خاصا به، وعند ذلك يجوز التزاوج بين إناث هذه البطون وذكورها، إلا أن التحريم يظل قائماً بالنسبة لمن ينتمون للطوطم الكبير.

ويورد الأستاذ العقاد خلاصة لرأى المخالفين لفكرة نشأة العقيدة عن الطوطم، وهم يرون أن الطوطمية ليست أصل العقيدة الدينية؛ لأنها تنشأ بعد أن تعرف القبائل أنظمة الزواج، وآداب التعامل، وليس من شك أن الإنسان يهتدى إلى تلك النظم وهذه الآداب بعد أن يكون قد عرف بعض العقائد والأعراف التى تنظم له هذه الأمور، وهذا يعنى أن الالتزام بهذه النظم والآداب لا يمثل المرحلة الأولى فى الاعتقاد.

هذا إلى جانب أن هناك قبائل عدة تعتنق فكرة الطوطم، ولكنها فى الوقت

(١) راجع كتاب (الله) ص١٤

نفسه تتخذ لها آلهة أخرى تتوجه إليها بالعبادة، وكذلك وجدت قبائل لا تضفى على الطوطم صفة الأرباب[1].

ويرى علماء الاجتماع أن نظام الطوطم نظام مدنى قضائى اقتصادى أكثر منه نظاما دينيا، ويذهب لانج (Lang) وفريزر (Frazer) الفرنسيان إلى أن نظام الطوطم ليس له صلة بالدين ألبتة. ويرى الدكتور دراز أن الطواطم تشير إلى شعارات قومية تعرف القبائل بها أنسابها وتنمى فى أفرادها الشعور الوطنى، وأنها باعثة على التعاون، واحترام توزيع الملكية وسائر قوانين الجماعة، فهم لا يعبدون تلك الرسوم ولا مدلولاتها، بل لهم معبود روحى يعتمدون عليه فى جلائل أعمالهم ودقائقها حتى إنهم ليستلهمونه أو يدعونه ليرشدهم إلى انتقاء أمثل الأسماء لأبنائهم.

ويورد رأى «دوركايم» الذى يعترف أن عدداً من قبائل استراليا قد وصلوا إلى فكرة الإله الأعلى أو الإله الأحد، وأنه كائن أزلى أبدى تسير الشمس والقمر والنجوم بأمره، وأنه هو الذى يثير البرق ويرسل الصواعق، وإليه يتوجه فى الاستسقاء وفى طلب الصحو، وهو الذى خلق الحيوان والنبات وصنع الإنسان من الطين، ونفخ فيه الروح، وهو الذى علم الإنسان البيان، وألهمه الصناعات، وشرع له العبادات، وهو الذى يقضى فى الناس بعد الموت فيميز بين المحسن والمسىء[2].

٧ ـ ويرى أوجست ماباتيه (أن التدين نشأ عند الإنسان نتيجة صراع وجد نفسه فيه بين الإحساس والإرادة، وأصيب الإنسان بصدمات متوالية نتيجة لهذا الصراع الدائم فعاش المرء فى أزمة داخلية نتيجة الصراع بين الإحساس والإرادة، فأراد أن يجد عوناً على التغلب على هذه الأزمة، فنشأت عنده فكرة الدين؛ ليجد فى رحابها حلا لهذه الأزمة الطاحنة) وذلك لأن الإنسان بحكم فطرته يلازمه شعور ثابت بالتبعية المطلقة لقانون الوجود العام، وعن هذا الشعور بالتبعية تنبثق فى النفس العقيدة الإلهية[3].

---

(١) راجع كتاب (الله) ص١٥، ١٦

(٢) راجع كتاب (الله) ص١٥٦، ١٥٧

(٣) راجع كتاب (الله) ص١٣٧، ١٣٨

٨ ـ ويرى هنرى برجسون أن العقيدة الدينية نشأت عند الإنسان من مصدرين رئيسيين: أحدهما اجتماعى، والآخر فردى، أما المصدر الاجتماعى: فهدفه فائدة المجتمع ونفع النوع كله، ويرى أن الإنسان لما أراد أن يكبح جماح نفسه، ويكف من غلواء أنانيته، ويخفف من رغبته الجارفة فى التملك، ويتشجع على نسيان مصالحه الخاصة فى سبيل المصلحة العامة، لجأ إلى فكرة الدين ليجد فيها عوضاً مستقبلا عما يتنازل عنه فى حياته لصالح الجماعة، وعن هذا الطريق نشأت عند الإنسان فكرة الجزاء والعقاب الأخروى من الإله الذى يعبده، ويجازيه على أعمال الخير والشر.

وفى تفسير رأى «برجسون» يقول الأستاذ العقاد: «ولما كانت إرادة الحياة مستكنة فى النوع كما هى مستكنة فى آحاده على انفراد نشأت من الغريزة النوعية ملكة يسميها «برجسون» بملكة الخرافة أو الرمزية أو ملكة الأساطير، وتكفلت للإنسان بخلق العوض الذى يستعيض به عن منافعه ولذاته حين يهجرها لمنفعة نوعه، فاعتقد الجزاء بعد الحياة، وأحس أنه محاسب على الإضرار بغيره، مثاب على الخير الذى يسديه إلى أبناء نوعه، واقترنت فيه أثرة الفرد بأثرة النوع، فاستقامت على التوازن بينهما مصلحته ومصلحة الناس أجمعين[1].

أما المصدر الفردى: فهو ما نجده عند العباقرة وذوى القدرات الممتازة، فإنهم لا يصدرون فى فكرتهم عن الإله من منطلق النفع والعوض على ما يقدمون، ولكنهم يدركون بما أوتوه من قوة الإلهام والبصيرة ضياء الحق فيندفعون نحوه، ويسوقون الناس إلى الأخذ به، فهم الذين يؤثرون فى مجتمعاتهم بما يرسون فيها من قواعد أخلاقية وسلوكية، ويضعون القوانين والنظم للآخرين على هدى ما رأوه من نفاذ الرأى وسداد البصيرة، وبالجملة فهم فى نظرتهم لا تحكمهم منفعة ولا عوض وإنما يسعون إلى تأصيل القيم العليا للإنسان، وهذه القدرات فيهم جعلتهم يصلون إلى إدراك أن هناك قوة عليا دائمة سرمدية تغير وتؤثر، ولا تتغير ولا تتأثر بغيرها، وهى الذات الإلهية[2].

---

(١) راجع كتاب (الله) ص١٦، ١٧

(٢) راجع كتاب (الدين) ص١٤٠ وكتاب (الله) ص١٧

ومن الملاحظ أن برجسون يعترف هنا بالحقيقة الإلهية، وإمكانية الوصول إلى معرفتها والاهتداء إلى حقيقتها العليا.

وإذا كان الأمر كذلك، فلماذا يجعل نشأة العقيدة الدينية عند الجماعات العادية أمراً مخترعا؟.

الا يكون ذلك ـ كما يقول الأستاذ العقاد ـ: من باب التلمس البديهى لتلك القوة الكونية؟ لماذا لا يكون نتيجة لبحث متواصل اهتدى إليه الإنسان مع الزمن أو عرفه عن طريق الهداة والرسل الذين بعث الله بهم لهداية البشرية كما أخبرنا قرآنه.. ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾(1).

وإذا سلم «برجسون» بأن هناك ذاتا إلهية، فكيف يسمى البحث عنها حيلة أو وهما؟!

وفى نقد رأى «برجسون» يقول الدكتور دراز ـ بعد أن يدلل على خطئه ـ: أما إذا أخذنا قانون الأخلاق فى جوهره الصحيح، واعتبرنا ما له من سلطان مركوز فى طباع الناس على اختلافهم موحياً للعقيدة الإلهية، ودليلا على صنعة الفاطر الأول الذى ألهم النفوس هداها، ورسم لها طريق فجورها وتقواها، فتلك فكرة سليمة ومنطق مستقيم(2).

هذه هى أهم الآراء التى تداولها الباحثون الغربيون الذين اهتموا بالبحث فى أمور العقيدة ونشأة الدين، وهى ـ كما ترى ـ تنظر إلى العقائد الوضعية فقط، وتغفل أو تتغافل عن الحقيقة التى أشرنا إليها فى مطلع هذا البحث، وهى: أن العقيدة نشأت مع الإنسان منذ أن خلق الله آدم وعلمه الأسماء كلها.

وبهذا نكون قد انتهينا من ذلك الفصل الذى عرضنا فيه لما نرى من وجهة النظر الإسلامية فى نشأة العقيدة، وما سجلناه من آراء الباحثين الغربيين فى هذا المجال. معقبين على آرائهم، كاشفين عن وجه الخطأ فيها، وقد آن الأوان أن ننتقل بالبحث إلى قضية أخرى تتناول دعوات الأنبياء التى أشار إليها القرآن الكريم.

---

(1) فاطر، من الآية: ٢٤

(2) راجع كتاب (الدين) ص١٤٢

دعوة نوح عليه السلام

على الرغم من أن آدم أبا البشر ـ عليه السلام ـ جاء بالتوحيد، وأورث عقيدة التوحيد إلى أبنائه من بعده، وكان بينه وبين نوح ـ عليه السلام ـ نبيان، هما: شيث، وإدريس كما يذكر ذلك علماء قصص الأنبياء، إلا أن القرآن الكريم يحدثنا أن قوم نوح كانوا مشركين يتخذون آلهة من دون الله، سماهم القرآن الكريم ودًّا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا، وهذا يجعلنا نتساءل: كم من الزمن قد مضى بين آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ؟

وعلى الرغم من أن الباحثين فى قصص الأنبياء يقررون أن ما بين وفاة آدم وولادة نوح كان ١٢٦ سنة أخذا مما جاء فى التوراة فإن ذلك يجعلنا نتحفظ فى قبول هذا الزمن؛ لأنه من المستبعد أن يتخذ القوم آلهة من دون الله والعهد بآدم قريب منهم، وكذلك العهد بشيث وإدريس ليس ببعيد، ونظن أن الزمن قد امتد بين آدم ونوح ـ عليهما السلام ـ أكثر من ذلك بكثير حتى تبدل القوم الوثنية والشرك بالتوحيد.

والحقيقة الثابتة التى لا مجال فيها للجدال ولا للمراء أن قوم نوح كانوا مشركين يتخذون من دون الله آلهة؛ وذلك لأن الله ـ سبحانه ـ يقول عن قوم نوح لما دعاهم إلى التوحيد: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾(١).

وقد ورد ذكر نوح ـ عليه السلام ـ فى القرآن الكريم ثلاثا وأربعين مرة فى عدة سور، وجاءت سورة خاصة باسمه، وهى السورة رقم واحد وسبعين فى المصحف، وعدد آياتها ثمان وعشرون آية.

---

(١) نوح، الآية: ٢٣

ونوح ـ عليه السلام ـ هو أول الرسل، وآدم أول الأنبياء، ومن المعروف عند العلماء أن كل رسول نبى وليس كل نبى رسولا ،وهو أول أولى العزم من الرسل كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

وقد عمر نوح فى قومه مدة طويلة حددها القرآن الكريم بخمسين وتسعمائة عام كما يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾[1] والذى يفهم من نص الآية أن مدة الألف إلا خمسين جاء بعدها الطوفان، وهذا يعنى أن دعوة نوح لقومه استمرت هذه المدة المشار إليها، وأنهم لما أهلكوا بالطوفان كان بعدهم من ركب مع نوح فى السفينة، وكلهم كانوا مؤمنين موحدين وإن كانوا قليلى العدد كما يفهم من قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[2].

مراحل دعوة نوح عليه السلام:

وقد حدثنا القرآن الكريم عن مراحل عدة مرت بها دعوة نوح ـ عليه السلام ـ وهو يحاور قومه ويدعوهم إلى التوحيد، ويذكرهم بنعم الله عليهم، ويرغبهم فى ثوابه، ويخوفهم من عقابه، وسنحاول أن نمضى مع القرآن الكريم نتعرف على تلك المراحل، ونستشهد لكل مرحلة بما يدل عليها من كتاب الله سبحانه، ثم نشير إلى المناهج والأساليب التى استعملها نوح ـ عليه السلام ـ على ضوء فهمنا للآيات الكريمات، ونستخلص الدروس المستفادة من دعوته ـ عليه السلام ـ.

ولن تكون الدراسة للدعوة استعراضا تاريخيا، وإنما سنقف عند بعض الأحداث التى تمثل مرحلة من المراحل لدعوة هذا النبى الكريم.

أولا: دعوته إلى التوحيد:

أنبياء الله ورسله هداة إلى الحق، ودعاة إلى الطريق المستقيم، يحاولون تصحيح الخطأ، وتقويم المعوج، وهداية الضال، ونصح العاصى، وتعليم

(١) العنكبوت، الآية: ١٤

(٢) هود، من الآية: ٤٠

الجاهل، ولقد وجد نوح قومه قد انحرفوا عن العقيدة الصحيحة، واتخذوا من دون الله آلهة لا تضر ولا تنفع، وقبل ذلك هم مكلفون من الله سبحانه بأن يأخذوا بيد أقوامهم إلى الطريق المستقيم، وإخلاص العبادة لله وحده، ولذلك لما قام نوح بدعوته أخذ يوجه قومه إلى معرفة الله الذى بيده ملكوت كل شيء، والذى إليه مرجع كل شيء، وسيجازى كل إنسان بما عمل إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، وليس أبعد فى الضلال من الانصراف عن عبادة الله الخالق رب السموات والأرض، وخالق كل شيء إلى عبادة أوثان وأصنام لا تسمع ولا تجيب، ولا تملك لأنفسها نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا؛ لذلك اتجه نوح إلى قومه يبصرهم ويدعوهم، ويبشرهم وينذرهم، ويخوفهم عذاب الله إن هم أصروا على الكفر والضلال.

ولقد سجل القرآن الكريم دعوة نوح قومه إلى عبادة الله وحده فى عدة مواضع من القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾(1)

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾(2).

وقوله: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(3).

المناهج والأساليب المستعملة فى هذه المرحلة:

استعمل نوح ـ عليه السلام ـ فى دعوة قومه إلى التوحيد المنهج العاطفى؛ حيث ناداهم بقوله: يا قوم.

---

(1) الأعراف، الآية: 59

(2) هود، الآيتان: 25، 26

(3) نوح، الآيات: 1 ـ 4

واستعمل أسلوب الموعظة الحسنة فى شكل الترهيب ـ فى آيات الأعراف وهود ـ المعبر عن خوفه عليهم، حيث قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ فى الأعراف، و﴿عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ﴾ فى هود.

واستعمل كذلك أسلوب الموعظة الحسنة فى آيات سورة نوح، ولكنه جمع بين شكلى الترغيب والترهيب معا.

ثانيا: اتهام قومه له، واعتراضهم على متابعة الضعفاء، وضيقهم بجداله إياهم:

وكان المنتظر من دعوته السابقة التى تنبض بعاطفة حبه الخير لهم وحرصه على هدايتهم وخوفه من أن ينالهم العذاب إنْ أعرضوا ورفضوا أن يستجيبوا له ولكنهم تمادوا فى عنادهم وطغيانهم ولم يستجيبوا لتلك الدعوة الكريمة من نبى الله نوح ـ عليه السلام ـ ولم يكتفوا بالرفض والإعراض فقط، ولكنهم اتهموه بالضلال والكذب، وعابوا عليه متابعة الضعفاء، وعبروا عن ضيقهم بجداله إياهم ومحاولته إظهار الخير الذى ينالهم إن هم استجابوا؛ لأنه لا هدف له إلا النصح لهم، وإبلاغ رسالة الله إليهم.

وفى تصوير موقفهم المعاند فى هذه المرحلة يقول الله تعالى فى سورة الأعراف: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٦٠ قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٦١ أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦٢ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾(1).

وفى سورة هود يقول تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرٗا مِّثۡلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأۡيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ۝٢٧ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ۝٢٨ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًا

(1) الأعراف، الآيات: ٦٠ ـ ٦٣.

إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾(١).

ولا يقتصر قوم نوح على ما سبق بل يتمادون ويهددونه بأنه إذا لم يتوقف عن دعوتهم فسيرجمونه، وقد عرضت سورة الشعراء لهذا التمادى فقال تعالى:
﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾(٢).

المناهج والأساليب المستعملة فى هذه المرحلة

استعمل نبى الله نوح فى هذه المرحلة المنهج العقلى كما يبدو ذلك بوضوح من آيات سورة الأعراف وآيات سورة هود.

واتخذ أسلوب المجادلة بالحسنى طريقا إلى إقناعهم ولفت أنظارهم إلى الحق الذى جاءهم به.

واستعملوا هم أسلوب التهديد والوعيد بعد أن ضاقوا بحواره ومحاولة إقناعهم.

ثالثا: استمرار نوح فى دعوته دون ملل:

حتى بلغ هذا الاستمرار ٩٥٠ عاما، وإصرارهم على الكفر ورفض الاستجابة له، وهذه المرحلة تمثل صبر نوح ـ عليه السلام ـ ذلك الصبر الذى فاق التصور

(١) هود، الآيات: ٢٧ ـ ٣٢

(٢) الشعراء، الآيات: ١٠٥ ـ ١١٦

حتى بلغ هذا العدد من السنين، مما يعطى الدعاة درسا فى الصبر والجلد ومواجهة العنت والصعاب بعزم ثابت ودأب مستمر، وفى هذه المرحلة يقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾[1].

رابعا: تذكيره إياهم بنعم الله عليهم:

إنه من المألوف فى مثل هذه الحالة بعد أن رأى إصرارهم على الكفر جيلا بعد جيل كأنما يوصى السابق اللاحق بالإصرار على الكفر، نقول: من المألوف حينذاك أن يحاول نوح لفت أنظارهم بكل الوسائل الممكنة والأساليب المتاحة، فأخذ يذكرهم بنعم الله عليهم لعل قلوبهم القاسية تهتز حينما يذكرهم بما أفاض الله عليهم من نعم، أو لعل عقولهم المتحجرة يتسرب إليها بصيص من شعاع الإيمان، ولذلك نرى نوحا - عليه السلام - فى هذه المرحلة ينوع فى استعمال المناهج والأساليب، وينتقل من المنهج العاطفى إلى المنهج العقلى، يقول تعالى على لسان نوح - عليه السلام -: ﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾[2].

المناهج والأساليب:

تضمنت الآيات الأُولُ المنهج العاطفى وأسلوب الموعظة الحسنة فى شكل التذكير بالنعم، ثم استعمل المنهج العقلى فى الآيات الأخيرة ابتداء من قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴾ وإن كان الجانب العاطفى والجانب الحسى بارزين أيضا فى هذه الآيات.

(١) العنكبوت، الآية: ١٤

(٢) نوح، الآيات: ١٠ - ٢٠

خامسا: اتهام قوم نوح له بالجنون:

كان المنتظر بعد أن حاول نوح ـ عليه السلام ـ لفت أنظار قومه إلى نعم الله التى يتقلبون فيها، وبعد أن حاول أن يبعث عقولهم على التفكير فى آثار قدرة الله فى الأرض وفى السماء أن يكون هناك محاولة منهم للتنبه أو التخلى عن العناد، غير أنهم أغلقوا قلوبهم وعقولهم واندفعوا يكيلون الاتهامات الظالمة لنبى الله نوح ـ عليه السلام ـ فرموه بالجنون ومحاولة الظهور بالفضل عليهم، وأنهم ينتظرون حتى يخلصهم الموت منه، وفى ذلك يقول الحق ـ سبحانه ـ: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾(١)

سادسا: أمر الله نوحا أن يصنع الفلك بعد أن أوحى إليه أن أحدا من قومه لن يؤمن بعد من آمن:

بعد أن بلغ الكفر بقوم نوح قمته واسترسالهم فى اتهامهم له بالجنون، وانتظار موته اشتد به الأسى؛ لأنه لم يعد هناك أمل فى إيمانهم بعد أن تلقى الوحى من ربه بأنه لن يؤمن أحد منهم بعد ذلك؛ ولذلك اتجهت مسيرة الدعوة فى إيجاد وسيلة جديدة تتفق مع الأحداث القادمة، فجاءه الأمر من الله بصنع الفلك وأن لا يبتئس بما صنع قومه معه، وتعتبر هذه الظروف مرحلة إعداد لما سينزل من أحداث، وفى ذلك يقول الله ـ سبحانه ـ: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾(٢).

سابعا: الأخذ فى صنع الفلك وسخرية قومه منه:

أخذ نوح يصنع الفلك استجابة لوحى الله له، وأخذ قومه يسخرون منه كلما مروا عليه لما رأوه يصنع الفلك وليس هناك نهر جار، ولا بحر متلاطم الأمواج،

(١) المؤمنون، الآيتان: ٢٤، ٢٥

(٢) هود، الآيتان: ٣٦، ٣٧

ولكن نوحا على يقين مما يصنع؛ لأن الأمر جاءه من علام الغيوب مشفوعا بالحكم بإغراقهم؛ ولذلك كان يواجه سخرية بسخرية مثلها، كما يقول القرآن الكريم: ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾(١).

ثامنا: دعاء نوح على قومه لعصيانهم بعد أن أخبره الله بعدم إيمانهم:

رأى نوح قومه يوصى بعضهم بعضا بالتمسك بعبادة الأصنام، وتفننهم فى المكر والإيذاء، ففقد الأمل فى إيمانهم بعد أن أخبره الله بذلك، فدعا الله أن لا يبقى منهم أحدا؛ لأنهم لن يُعْقبوا إلا كل كفار عنيد، وفى ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا (٢٥) وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (٢٧) رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴾(٢).

تاسعا: أمر الله سبحانه لنوح ـ عليه السلام ـ أن يحمل فى السفينة من كل زوجين اثنين لما بدأت بوادر الطوفان بفوران التنور:

تهيأ نوح ـ عليه السلام ـ لاستقبال الحدث الهام لما بدأت بوادره، وجمع فى الفلك من كل صنف من المخلوقات زوجين مع المؤمنين من أسرته وأتباعه،

---

(١) هود، الآيتان: ٣٨، ٣٩.

(٢) نوح، الآيات: ٢١ ـ ٢٨

وذلك عن أمر الله ووحيه، وفى هذا يقول الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾(١).

ولعل القارىء يتساءل: فى أى منطقة من الأرض كان هذا التنور؟ وما هو التنور؟ قال عدد من المفسرين: إن ذلك كان فى العراق، والتنور: هو الموقد.

عاشرا: الطوفان ودعوة نوح ابنه أن يركب معهم:

وهنا أمر الله السماء أن ينهمر مطرها، والأرض أن يفور منها الماء حتى بلغ الماء قمم الجبال، وأصبحت السفينة تمضى وسط جبال من الأمواج، ورأى نوح ابنه معتزلا فدعاه ليركب معهم، فأبى، وقد صور القرآن الكريم هذا المشهد المثير فى سورتين، الأولى سورة هود، وكانت مفصلة، والثانية فى سورة القمر، وكانت مجملة، أما آيات سورة هود فتقول: ﴿ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٢).

وأما آيات سورة القمر فتقول: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴿١٠﴾ فَفَتَحۡنَآ أَبۡوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٖ مُّنۡهَمِرٖ ﴿١١﴾ وَفَجَّرۡنَا ٱلۡأَرۡضَ عُيُونٗا فَٱلۡتَقَى ٱلۡمَآءُ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ قَدۡ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلۡنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلۡوَٰحٖ وَدُسُرٖ ﴿١٣﴾ تَجۡرِي بِأَعۡيُنِنَا جَزَآءٗ لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾(٣).

---

(١) هود، الآية: ٤٠

(٢) هود، الآيات: ٤١ ـ ٤٤

(٣) القمر، الآيات: ١٠ ـ ١٤

حادى عشر: دعاء نوح ربه من أجل ابنه:

ولما رأى نوح المياه تغمر الأرض وتبلغ قمم الجبال، ورأى ابنه يصيبه ما يصيب الكافرين اتجه إلى الله بالدعاء، لعله ينجى ابنه بناء على ما فهمه من أمر الله له بأن يحمل معه أهله، وهو أحد أفراد أهله، فذكَّره الله أن من يرفض عقيدة التوحيد التى دعا إليها لن يكون له شفيع إلى النجاة، وهنا نأخذ عظة ودرسا وعبرة من أن القرابة لا تنفع صاحبها إذا كان عاصيا لله؛ ولذلك كان جواب الله سبحانه لنوح ـ عليه السلام ـ إنه ليس من أهلك الذين كتبت لهم النجاة؛ لأنه لم يؤمن بالله، وهذا الموقف يذكرنا بما قاله رسول الله ﷺ لبنى هاشم حتى لا يتكلوا على صلة القربى به ﷺ حين قال: **«يابنى هَاشم: لا يأتينى النَّاس بأعْمَالهمْ وتأتُونى بَأحْسابَكُم، فإنِّى لا أُغنى عنْكُمْ منَ الله شَيْئاً»** وفى ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(١)

وحول هذه المرحلة والمرحلة السابقة عليها، ونعنى مجىء الطوفان ثم انحساره، وإهلاك الكافرين بالغرق ونجاة المؤمنين مع نوح ـ عليه السلام ـ يثور تساؤل: هل عم الطوفان الأرض كلها؟ أو غمر الجزء الذى كان فيه نوح وقومه؟ هذان رأيان لأهل العلم حول وقوع الطوفان، وكذلك وقع التساؤل عن الجودى أين يقع؟ هناك أقوال متعددة، أحدها: أنه جبل بالموصل، الثانى: أنه جبل بالجزيرة، الثالث: أنه اسم لكل جبل.

وهنا وصلنا إلى انتهاء المراحل التى مرت بها دعوة نوح عليه السلام.

---

(١) هود، الآيات: ٤٥ ـ ٤٨

الدروس المستفادة:

ويمكن أن نوجز الدروس المستفادة من دعوة نوح ـ عليه السلام ـ فيما يلى:

١ ـ بذل الجهد فى بيان الحق وإظهاره والدعوة إليه.

٢ ـ عدم السماح للدعوات المتعصبة بأن تؤثر فى مجرى الأمور.

٣ ـ لا يفرق الإيمان بين الأغنياء والفقراء.

٤ ـ الصبر على مواجهة المصاعب مهما كانت.

٥ ـ ليس للعلاقة الأسرية دخل فى الفوز برضا الله تعالى، وإنما الفيصل فى ذلك هو الإيمان والعمل الصالح.

٦ ـ البحث عن وسائل جديدة تستطيع الدعوة بها أن تصل إلى غايتها المرجوة.

* * *

دعوة إبراهيم عليه السلام

هو خليل الله إبراهيم ـ عليه السلام ـ وأبو الأنبياء، وأعطى لقب «خليل الله»؛ لأن الله سبحانه يقول: ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾[1] وأطلق عليه أبو الأنبياء لأن كل الأنبياء الذين جاءوا من بعده من ذريته وكان خاتمهم محمدا ﷺ . . .

وقد ذكر اسمه فى القرآن الكريم تسعا وسبعين مرة، وجاءت سورة باسمه فى القرآن الكريم، وهى السورة رقم (١٤) وآياتها ثنتان وخمسون آية، وهى من السور المكية.

وترددت أخبار أبى الأنبياء فى أربع وعشرين سورة من القرآن الكريم.

وقد نشأ أبو الأنبياء ـ عليه السلام ـ فى قوم يتخذون أصناما آلهة، بل روى أن أباه كان يصنع الأصنام ويبيعها، وكان ممن دعاهم جماعة يتخذون من الكواكب آلهة؛ ولذلك كانت دعوته متجهة إلى هداية هؤلاء وأولئك، واتخذت عدة مراحل، وكان من الأمور البدهية أن يبدأ بدعوة أبيه وقومه الأقربين إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام، وقد علمنا القرآن الكريم أن تكون دعوة الآباء قائمة على التلطف، والحرص على جلب الخير، وإظهار وشائج القربى التى تستدعى التعبير عما تقتضيه هذه العلائق من لفت الأنظار فى لطف وحرص على الفوز بالنجاة من العذاب، ومن أجل ذلك مرت مراحل دعوة إبراهيم بفترتين متميزتين، أولاهما تتعلق بإبراهيم نفسه، وإعداده لتحمل المسئولية العظمى التى سيضطلع بها، ويقتضى ذلك أن يتعرض لاختبار شديد حتى لا يكون هناك شىء يشغله عن

---

(١) النساء، من الآية: ١٢٥

الدعوة وما تقتضيه من جهد وتضحيات، والقرآن الكريم يحدثنا أن إبراهيم - عليه السلام - قد تقدمت به السن ولم يرزق ولدا إلا بعد أن طعن فى الشيخوخة، وهذا يفهم من الآية الكريمة ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾(1).

ومن البدهى تعلق الوالد بابنه الذى رُزِقَهُ على كبر، ولما جاء إسماعيل وتعلقت به نفس أبيه أراد الله أن يبتلى خليله أولاً باغتراب هذا الابن الوحيد وبعده عنه، وثانيا بالأمر بذبحه؛ حتى يضرب إبراهيم - عليه السلام - المثل للدعاة على مر الأجيال فى الصبر على مفارقة فلذات الأكباد، بل والتضحية بهم إذا كان ذلك أمرا من الله.

أولا: أما الأمر الأول ويتمثل فى الابتلاء بمفارقة الابن الوحيد، ووضعه فى مكان لا زرع فيه ولا ضرع، وذلك حينما جاءه الوحى بأن يضع إسماعيل وأمه عند البيت المحرم، وفى هذا يقول الحق - تبارك وتعالى - على لسان إبراهيم - عليه السلام -: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾(2).

وهنا يبدو سؤال: هل كان البيت معروفا قبل إبراهيم؟ إن لفظ (عند) الذى جاء فى الآية الكريمة يفيد أن البيت كان مكانه معروفا قبل ذلك، وسنزيد هذا الأمر بحثا فيما يأتى، ويستفاد كذلك من دعاء إبراهيم أن هذا المكان سيكون مهوى أفئدة الملايين من البشر، وأن الثمرات ستجبى إليه من سائر أقطار الأرض، وهذا وذاك أمران ملموسان ندركهما ونعرف آثارهما حينما نرى قلوب الملايين تهفو إلى هذا البيت زائرين وحاجين ومعتمرين، ونرى أيضا كل خيرات الأرض متوفرة طوال العام.

ثانيا: أما الأمر الثانى فيتمثل فى الاستعداد للتضحية بهذا الابن الذى رُزِقَهُ على

---

(1) إبراهيم، الآية: 39

(2) إبراهيم، الآية: 37

كبر، وذلك حينما شب وبلغ السعى مع أبيه ليعاونه على قضاء مسئولياته، ولكن الوحى يأتيه طالبا إليه أن يذبح ابنه هذا الذى اشتاقت له نفسه طويلا والذى اغترب عنه منذ رضاعه، فلم يكن يراه إلا لماما، والذى أصبح قادرا على أن يساعد أباه على قضاء حاجاته، وعندئذ يأتيه الأمر من السماء بأن يذبح ابنه اختبارا له وابتلاء، وهنا تبرز التضحية بأسمى معانيها، والاستجابة لأمر الله مهما كان ذلك قاسيا على النفس البشرية، ويبدو أيضا التسليم المطلق من الابن حينما يخبره أبوه بما هو مقدم عليه، فيكون الجواب: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾(١) أما هذا الموقف العصيب والابتلاء الذى لم تعرف البشرية له مثيلا فتحدثنا عنه الآيات التالية: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(٢).

وهنا يجىء سؤال، وهو أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ استعد لذبح ابنه على إثر رؤيا رآها، فهل الرؤيا من الوحى؟ والجواب: أن رؤيا الأنبياء وحى، وكان الوحى يأتى إلى رسول الله محمد ﷺ فى الأشهر الستة الأولى من الرسالة عن طريق الرؤيا، وجاء عن رسول الله ﷺ: **«الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة»**(٣) وذلك أن الرسالة استمرت ثلاثة وعشرين عاما. والستة الأشهر تعادل واحدا إلى ستة وأربعين من ثلاثة وعشرين عاما، وقد أخبر القرآن الكريم أن رؤيا رسول الله ﷺ صادقة، فالله يقول: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ

---

(١) سورة الصافات، من الآية: ١٠٢

(٢) الصافات، الآيات: ١٠١ ـ ١١٠

(٣) راجع فتح البارى ١٢/٣٧٣ (كتاب التعبير)

﴿لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[1]، وقد قص علينا القرآن الكريم أيضا رؤيا يوسف ـ عليه السلام ـ التى رآها وهو صغير وقصه إياها على أبيه ـ عليهما السلام ـ وتأويله إياها لأبيه بعدما التقيا، أما الرؤيا فهى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[2].

وأما تأويلها ففى قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[3].

وقد أفرد أصحاب كتب السنن أبوابا وكتبا خاصة، بعضهم يجعل عنوانه (التعبير) كما صنع البخارى، وبغضهم يجعل العنوان (الرؤيا) وقد جاء عند البخارى فى أول (كتاب التعبير) حديث أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت: **«أَوَّلُ مَا بُدِىءَ به رَسُول الله ﷺ منَ الوَحى الرُّؤيا الصَادِقَةُ فى النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤيَا إِلا جَاءَتْهُ مِثْلَ فَلَقِ الصبحِ... الخ الحديث..»**[4].

جاء كذلك الحديث الذى يقول: **«لَمْ يَبْقَ منَ النُّبوة إلاَّ الْمبشِّرَاتُ، قَالُوا: ومَا المُبَشِّرات يَا رَسُول الله؟ قالَ: الرُّؤيَا الصَّالِحَةُ»** وهناك زيادة عند النسائى تقول: **«يراهَا المُسْلِم أَوْ تُرَى لَه»**[5].

---

(١) الفتح، الآية: ٢٧.

(٢) يوسف، الآيتان: ٤، ٥.

(٣) يوسف، الآية: ١٠٠ وراجع فتح البارى ج١٢ ص٣٧٦ وما بعدها.

(٤) راجع فتح البارى ج١٢ ص٣٥١ (كتاب التعبير).

(٥) راجع فتح البارى ج١٢ ص٣٧٥

ثالثا: بناء البيت ودعاء إبراهيم وإسماعيل أن يفيض الله الرزق على أهل الحرم، وأن يبعث فيهم رسولا منهم:

ولعل القارىء يتساءل: هل إبراهيم هو أول من بنى البيت أم أنه كان مبنيا قبل ذلك؟

إننا حينما نتأمل فى الآية التى تتحدث عن قيام إبراهيم وإسماعيل ببناء البيت نراها تقول: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾(1) ورفع القواعد يفيد غالبا أنها كانت موجودة ثم زاد إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - عليها، ويحتمل أن المقصود بناؤها من الأساس، ولكننا نرجح الأول، لأن الله - سبحانه - يقول فى آية أخرى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾(2)، فالنص على أن البيت هو أول بيت وضع للناس يعنى أنه كان موجودا قبل ذلك، لأن عبادة الله فى الأرض منذ بدء الخليقة، وهل من المعقول أن لا يكون هناك بيوت لعبادة الله قبل أن يبنى إبراهيم وإسماعيل البيت؟ إن تعبير القرآن بقوله: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ ﴾ يؤكد أنه كان موجودا قبل أن يرفع إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - قواعده، ويرجح هذا الآثار التى جاءت تقول: إن الأنبياء والملائكة والجن حجوا البيت من قبل. أما الآيات التى تدل على رفع إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - لقواعد البيت ففيما يلى نصها: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾(3).

---

(1) سورة البقرة، من الآية: ١٢٧.

(2) سورة آل عمران، الآيتان: ٩٦، ٩٧

(3) البقرة، الآيات: ١٢٧ - ١٢٩.

وفى هذه الآيات الكريمة إشارة إلى الحديث الذى ورد عن رسول الله ﷺ والذى يقول: «ألاَ أُخبركُمْ بأوّل أمْرى؟ دَعْوَةُ أَبِى إبْراهيم، وبشارةُ أَخِي عِيسى..» فإن قوله ﷺ: «دعوة أبى إبراهيم» إشارة إلى ما جاء فى الآية الكريمة: ﴿وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ وكما استجاب الله دعوة إبراهيم وإسماعيل بالنسبة لرسول الله فقد استجاب كذلك بالنسبة للأمة المسلمة التى دعَوا الله أن تكون فى قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾(١). وأما بشارة عيسى ففى قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ..﴾(٢).

رابعا: الأذان بالحج:

بناء البيت فى تلك البقعة المباركة، ودعوة أبى الأنبياء وابنه إسماعيل ـ عليهما السلام ـ أن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة لله رب العالمين، وأن يبعث الله فيهم رسولا منهم فى وقت لم يكن هناك قاطن، ولا مقيم بذلك الوادى الموصوف فى القرآن الكريم بأنه غير ذى زرع، نقول: إن ذلك إشارة إلى المستقبل بأن هذه البقعة ستكون مهوى أفئدة الملايين من البشر فى مشارق الأرض ومغاربها، وهذه أيضا دعوة أخرى من أبى الأنبياء إلى جانب رزقهم من الثمرات، حيث قال: ﴿ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾(٣).

وهكذا تتجه الملايين كل يوم خمس مرات وجهة هذا البيت الذى بناه أبو الأنبياء وابنه ـ عليهما السلام ـ وتأتيه من كل فج عميق للحج والعمرة، وفى أذان إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالحج يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ

(١) سورة البقرة، من الآية: ١٢٨
(٢) سورة الصف، من الآية: ٦
(٣) سورة إبراهيم، من الآية: ٣٧

وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾(١).

ولسنا فى حاجة إلى القول بأن ثمرات الأرض من كل جوانبها تجبى إلى هذه البلاد التى شرفها الله سبحانه ببيته المحرم، ومبعث نبيه محمد ﷺ فقد سبقت الإشارة إلى ذلك، وهذا أمر يلمسه كل من أقام بهذه البلاد، سواء كان من سكانها أو القادمين إليها، وصدق الله العظيم، وهو يقول فى معرض الامتنان على قريش: ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(٢).

وإلى هنا نكون قد استوعبنا المراحل التى تتعلق بإبراهيم نفسه وما يترتب عليها فى المستقبل الذى سيدوم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وقبل أن نتناول مراحل الفترة التى باشر فيها الدعوة مع قومه نشير إلى مرحلة متميزة، وهى المتعلقة بالبشارة بابنه إسحاق ـ عليه السلام ـ واستقبال زوجه هذه البشارة بالعجب والدهشة؛ لأن زمن الإنجاب المعتاد قد ولَّى.

خامسا: حوار إبراهيم مع ضيوفه من الملائكة:

وهذه المرحلة تشير إلى نعمة من نعم الله سبحانه على أبى الأنبياء إبراهيم؛ حيث أخذ فى التنفيذ العملى للتضحية بابنه إسماعيل الذى رزقه على كبر استجابة لأمر الله سبحانه، فمنَّ الله عليه بأن فدى ابنه بذبح عظيم، وبشره بابن آخر هو إسحاق؛ لأنه كان من المحسنين، وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا

(١) الحج، الآيات: ٢٦ ـ ٢٩.
(٢) القصص، من الآية: ٥٧

تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾[1].

وفيما يلى المراحل التى تحكى مسيرة الدعوة إلى الله مع قومه.

سادسا: التلطف مع أبيه، ومحاولة لفت نظره إلى بطلان اتخاذ الأصنام آلهة:

وقد جاء ذلك فى عدة آيات من سورة مريم بدا فيها اهتمام إبراهيم ـ عليه السلام ـ بهداية أبيه، وحرصه على نجاته من العذاب الذى يحل بمن يشرك بالله رب العالمين، فى أسلوب يستدرّ كل معانى المودة والقربى التى تربط الابن بأبيه.

يقول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾[2].

وهنا نرى إبراهيم ـ عليه السلام ـ قد استعمل المنهج العاطفى فى دعوته لأبيه وأسلوب الموعظة الحسنة فى شكلى الترغيب والترهيب، فالترغيب فى قوله: ﴿فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ والترهيب فى قوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا﴾ وحتى بعد أن هدده أبوه بالرجم إن لم ينته عن

(١) الذاريات، الآيات: ٢٤ ـ ٣٤

(٢) مريم، الآيات: ٤١ ـ ٤٨

دعوته، فإنه أيضا تابع الموعظة الحسنة فى قوله: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ﴾ وهذا المسلك الحكيم الرفيق يعطى الدعاة نموذجا يهتدون به فى دعوتهم، وينسجون على منواله وهم يتعاملون مع المدعوين، فيقابلون الغلظة منهم باللين، والتهديد بالإعلان عن الرغبة فى نجاتهم وجلب الخير إليهم، وهذا هو مسلك المؤمنين الذين مدحهم الله من أجله فى قوله ـ سبحانه ـ: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾[1].

سابعا: التدرج مع قومه فى الحوار الهادىء:

مع لفت أنظارهم فى رفق ولين إلى بطلان اتخاذ آلهة من دون الله أوثانا كانت أو كواكب، ثم الانتهاء معهم إلى أنها مخلوقات لله الجدير وحده بالعبادة.

والدليل على ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[2].

وفى هذه المرحلة نجد فى الآيات الكريمة المنهج العقلى واضحا، وذلك فى محاولة إبراهيم ـ عليه السلام ـ الحوار مع عباد الكواكب دافعا لهم أن يستعملوا عقولهم فى التفكر فيما يجب أن يكون عليه الإله الحق من الوجود الدائم الذى لا يعتريه أفول ولا مغيب، أما الأساليب فإننا نرى بوضوح أسلوب الحوار والمحاكمات العقلية فى هذه الآيات.

---

(١) الحج، الآية: ٢٤

(٢) الأنعام، الآيات: ٧٥ ـ ٧٩

ثامنا: إظهار عجز آلهة قوم إبراهيم:

وذلك بالكشف عن عجزها وعدم قدرتها على إجابة من يدعوها، وعدم قدرتها على النفع والضرّ، ثم التعقيب على ذلك ببيان صفات الإله الحق الجدير بالعبادة، والتوجه إليه سبحانه بقضاء ما يحتاجه العباد، وفى الوقت نفسه يحاول إيقاظ عقولهم الغافلة لعلها ترى الحق فتهتدى إليه وتمضى فى طريق الرشاد، وفى ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(١).

والمتأمل فى هذه الآيات الكريمات يرى أن المنهج العقلى سائد فيها، وذلك فى سؤال إبراهيم قومه عن آلهتهم وعجزها عن الإجابة، وعدم قدرتها على الضر والنفع، والاستدلال على أحقية الله سبحانه بالعبادة بأنه هو الرازق للطعام والشراب، والقادر على الإصابة بالمرض والشفاء منه، وواهب الحياة وسالبها بالموت، وهذا كله مما يدفع العقول إلى التفكير والتأمل، وهو كذلك يستعمل أسلوب الحوار والمحاكمات العقلية، وقد عبر القرآن الكريم عن هذه المرحلة فى موضع آخر من سورة العنكبوت حيث يقول الله تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ

(١) الشعراء، الآيات: ٦٩ - ٨٩

رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟
فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟
كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾
يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ
وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ
جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ
ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾(1).

ونرى أيضا هنا أن المنهج العقلى واضح فى هذه الآيات الكريمات، حيث يلفت إبراهيم ـ عليه السلام ـ قومه إلى عجز آلهتهم عن رزقهم، وأن الرازق هو الله الحقيق بالعبادة، ثم يتابع استنفار قواهم العقلية على التفكير فى بدء الخلق وإعادته، ثم الاعتبار بالسير فى جنبات الأرض ليدركوا فى جلاء قدرة الله سبحانه، ويتبع ذلك بالوعيد بالعذاب الشديد للكافرين.

وكان المنتظر من قوم إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يستعملوا عقولهم، وينتفعوا بمحاولة أبى الأنبياء ـ عليه السلام ـ أن يدفعهم إلى التفكير بعدما قدم لهم من الأدلة القاطعة على عجز آلهتهم فيدركوا أنها لا تصلح أن تعبد، ولا يليق بذوى العقول المستنيرة أن يخضعوا لأصنام لا تضر ولا تنفع، ولكنهم لما لم ينتفعوا بهذه المحاولة، وتحجرت عقولهم فلم تفكر، ولم يكن لهم من حجة تبرر صنيعهم غير المستقيم تعلقوا بأنهم يتابعون آباءهم فيما كانوا يعتقدون. انتقل إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى مرحلة ثالثة فيها مواجهة.

(1) العنكبوت، الآيات: ١٦ ـ ٢٥

تاسعا: مواجهة قومه بالإعلان عن بطلان عقيدتهم، والسخرية من آلهتهم التى يعبدونها:

وذلك بتقديم الدليل العملى على عجزها فى الدفاع عن أنفسها لعلهم حينما يرون ذلك يفيقون من غفلتهم، وكان ذلك من خلال حوار ساخن أسكتهم فيه إبراهيم ووسمهم وآباءهم بالضلال فى عقائدهم، وإزاء عجزهم عن إيراد الدليل على صحة ما يعكفون عليه لجأوا إلى العنف والبطش، فأعدوا العدة للتخلص منه بإلقائه فى النار التى نجاه الله منها؛ ليكون دليلا آخر محسوسا لعلهم يعودون إلى رشدهم، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المرحلة وما واكبها من أحداث فى سورتين، هما: الأنبياء، والصافات.

أما آيات الأنبياء فتقول: ﴿ولقد ءاتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين (٥١)
إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون (٥٢) قالوا وجدنا ءاباءنا لها
عابدين (٥٣) قال لقد كنتم أنتم وءاباؤكم فى ضلال مبين (٥٤) قالوا أجئتنا بالحق أم
أنت من اللاعبين (٥٥) قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من
الشاهدين (٥٦) وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين (٥٧) فجعلهم جذاذا
إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون (٥٨) قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن
الظالمين (٥٩) قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم (٦٠) قالوا فأتوا به على أعين الناس
لعلهم يشهدون (٦١) قالوا ءأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم (٦٢) قال بل فعله
كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون (٦٣) فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا
إنكم أنتم الظالمون (٦٤) ثم نكسوا على رءوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون
(٦٥) قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم (٦٦) أف
لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون (٦٧) قالوا حرقوه وانصروا ءالهتكم إن
كنتم فاعلين (٦٨) قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم (٦٩) وأرادوا به كيدا
فجعلناهم الأخسرين (٧٠) ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين (٧١)
ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلا جعلنا صالحين (٧٢) وجعلناهم أئمة

يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾[1].

ونرى فى هذه الآيات المنهج العقلى وأسلوب الحوار والمحاكمات العقلية التى أسكتهم بها، وإن كانت الآيات تشير إلى أنهم حصل لهم صحوة لكنهم لم يلبثوا أن عادوا إلى الغفلة والضلال، وقد عبر عنهما القرآن بقوله: ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ ﴾.

ونجد أيضا أسلوب القوة قد استعمل فى هذه الآيات بعد أن أغلقوا عقولهم عن التفكير حينما كسر إبراهيم ـ عليه السلام ـ أصنامهم، ويؤخذ من الآيات أيضا استعمال المنهج الحسى مع أسلوب القوة، وذلك فى الآية الكريمة: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾.

وأما آيات سورة الصافات فتقول: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾[2].

ونجد هذه الآيات الكريمات قد امتزج فيها المنهج الحسى بالمنهج العقلى وأسلوب الحوار، إلى جانب أسلوب القوة، ويؤخذ المنهج الحسى وأسلوب القوة من قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ والسخرية من هذه الآلهة واضحة فى قوله: ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾.

(1) الأنبياء، الآيات: ٥١ ـ ٧٣

(2) الصافات، الآيات: ٨٣ ـ ١٠١

ويؤخذ المنهج العقلى وأسلوب الحوار من قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۝٩٥ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾.

وعلى الرغم من هذه الآيات الواضحات، والدلائل القاطعة من أن الإله الحق هو الله ـ سبحانه ـ الذى يدعو إليه أبو الأنبياء، والذى بدا من قدرته وسلطانه ما رأى الناس جميعا من إبطال خاصية النار وسلبها القدرة على الإحراق، ونجاة إبراهيم ـ عليه السلام ـ منها، وكان هذا داعيا إلى أن ينصرف الناس عن كل دعوة تدعو إلى عبادة غير الله، إلا أن الغرور قد حال بين بعض الناس وبين الانصياع للحق، فلا زال يوجد من يزعم أنه إله يدعو الناس إلى عبادته والخضوع له، وكان لابد لأبى الأنبياء ـ عليه السلام ـ أن يواجه فى حزم وعزم هذا الانحراف السافر، وذلك الادعاء الباطل، وأن يتحدى هذا الغرور حتى يقضى عليه، فكانت المرحلة التالية من مراحل دعوته ـ عليه السلام ـ.

عاشرا: تحدى مدعى الألوهية وإفحامه:

وإلى هذه المرحلة تشير الآية الكريمة من سورة البقرة، وذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(١).

والمنهج العقلى وأسلوب الحوار والجدال واضحان فى هذه الآية الكريمة، وهنا أمران نحب أن نلفت الدعاة إليهما؛ لينتفعوا بهذا المنهج القرآنى السديد، أما الأمر الأول فيتمثل فى مغالطة مدعى الألوهية حينما زعم أنه يحيى ويميت، وهنا أدرك أبو الأنبياء ـ عليه السلام ـ أن بذل الجهد فى محاولة كشف كذب ادعائه سيعطى فرصة للمماطلة والتلبيس على البسطاء؛ ولذلك أعرض عن ذلك، واتجه مباشرة إلى الأمر الثانى الذى أصاب مدعى الألوهية بمثل الصاعقة فلم يُحر جوابا وبدا فى صورة مزرية عبرت عنها الكلمة القرآنية ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ﴾ وما فيها من إيحاءات.

---

(١) البقرة، الآية: ٢٥٨

قد رأينا هذه الرحلة الممتدة التى قطعها أبو الأنبياء ـ عليه السلام ـ فى الدعوة إلى الله ـ سبحانه ـ والإعداد لمقدم النبى الخاتم والأمة المسلمة، ووقفنا على التضحيات العظام التى بذلها راضيا مستجيبا لأمر الله تعالى؛ ولذلك نجد فى القرآن الكريم الدعوة إلى الاقتداء به والسير على منهجه، وفى ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٥ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾(١).

الدروس المستفادة من دعوة إبراهيم عليه السلام

١ ـ التلطف فى دعوة الكبار والآباء.

٢ ـ محاولة لفت الأنظار إلى الحق فى رفق ولين.

٣ ـ التدرج فى كشف العقائد الباطلة بعرض الأدلة القاطعة على بطلانها، وبذل الوسع فى إقناع المدعوين.

٤ ـ الانتقال إلى السخرية والمواجهة حينما يتبين إصرار المدعوين على باطلهم.

٥ ـ المثابرة ومتابعة محاولة الإقناع بتبنى الوسائل المشروعة والممكنة.

٦ ـ تحدى من يصر على الباطل، وإظهار كذب دعواه أمام الآخرين.

٧ ـ الصبر على مواجهة الصعوبات مهما عظمت.

٨ ـ الاستعداد للتضحية فى سبيل الدعوة إلى الحق.

٩ ـ الاستعداد للابتلاء والرضا بالاغتراب ومفارقة الأحباب استجابة لأمر الله تعالى.

---

(١) الممتحنة، الآيات: ٤ ـ ٦

دعوة كليم الله موسى عليه السلام

كليم الله موسى بن عمران ـ عليه السلام ـ أحد أولى العزم من الرسل، وقد ورد اسمه فى القرآن الكريم ١٣٦ مرة، وترددت قصته ـ عليه السلام ـ فى أربع وثلاثين سورة، ولم يحظ نبى من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ بالحديث المستفيض عنه وعن قومه والأحداث التى جرت له ولهم مثلما حظى موسى ـ عليه السلام ـ.

١ ـ ظروف ولادة موسى وأسبابها:

وقد ولد فى ظروف عصيبة؛ إذ كانت أسرته تعيش فى مصر كإحدى أسر بنى إسرائيل الذين أقاموا فى مصر منذ أيام يوسف ـ عليه السلام ـ حين قال لإخوته: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾(١).

ولكنهم مع مضى الزمن وتغير الحكام تعرضوا للاضطهاد والتضييق من فرعون وقومه، وبلغت الشدة ذروتها حينما قرر فرعون أن يقتل كل مولود ذكر من بنى إسرائيل، وقد جاءت الإشارة إلى تذبيح فرعون للذكور من مواليد بنى إسرائيل فى ثلاث سور من القرآن الكريم: فى سورة البقرة حيث يقول الله تعالى ممتنا عليهم: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾(٢).

---

(١) يوسف، الآية: ٩٣

(٢) البقرة، الآية: ٤٩

وفى سورة إبراهيم حيث يقول الحق سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[1].

وفى سورة القصص: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[2]، وقد ذكر الكاتبون فى قصص الأنبياء: أن فرعون اتخذ هذا الموقف الشنيع؛ لأنه ترامى إلى سمعه أن بنى إسرائيل كانوا يتحدثون فيما بينهم عما ينسب إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه، وأن الإسرائيليين كانوا يقولون ذلك على الملأ، فتناقلها القبط وأوصلوها إلى فرعون[3]. وهناك رواية أخرى تنسب إلى ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ وابن مسعود ـ رضى الله عنه ـ تقول: إن فرعون رأى فى منامه كأن نارا أقبلت من نحو بيت المقدس فأحرقت دور مصر، وجميع القبط، ولم تضر بنى إسرائيل، فلما استيقظ هاله ذلك، فجمع الكهنة والحذقة والسحرة، وسألهم عن ذلك، فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء، يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه؛ فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك الإناث[4].

ويقال أيضا: إن فرعون لما فعل ذلك قيل له: إن بنى إسرائيل سيفنون بقتل المواليد الذكور وموت الكبار، وحينئذ لا يوجد من يقوم بالأعمال التى يؤدونها، فاتخذ قرارا آخر بأن يقتل مواليد عام ويترك مواليد عام، فولد هارون فى العام الذى لم يكن فيه قتل، وحملت أم موسى به وحان مولده فى العام الذى سيقتل فيه المواليد من الذكور، فتملكها الحزن والخوف وبخاصة بعد أن وضعت موسى ـ عليه السلام ـ فأوحى الله إليها وحى إلهام أن ترضعه، فإذا خافت أن ينكشف

(١) إبراهيم، الآية: ٦

(٢) القصص، الآية: ٤

(٣، ٤) راجع قصص الأنبياء لابن كثير ج٢ ص٤، ٥ تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد.

أمره فتضعه فى صندوق وتلقيه فى النهر، ويفهم من هذا أن بيتها كان على شاطىء النيل جنوب القاهرة، ولازال هناك حتى الآن قرية فى شرق النيل فى مركز الصف تسمى «نزلة موسى».

وفى تصوير هذه الظروف يقول القرآن الكريم: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[1].

٢ـ التقاط آل فرعون له:

وصنعت أم موسى ما أُلهمته فألقت ابنها فى النهر، وحمله التيار حتى أوفى به على قصر فرعون، ولنا أن نتصور مدى القلق الذى كان يستبد بقلب أم موسى وهى تلقى به إلى المجهول، حتى إنها أوشكت أن تخبر عن حالها لولا أن أفرغ الله عليها من الصبر ما جعلها تثبت، وساعدها على ذلك الأمل الذى كان يتردد فى قلبها لإلهام الله لها أن ابنها سيرد إليها، وسيكون له شأن أى شأن، وعلى الجانب الآخر فقد التقط آل فرعون الصندوق وحملوه إلى امرأة فرعون التى ألقى الله محبة الغلام فى قلبها، وأخذت تحاور زوجها لتقنعه أن يبقى عليه فلا يقتله؛ لكى يكون لهما قرة عين، وفى ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2].

وفى موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ عن نفس المشهد فى مجال الامتنان على موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴾[3]. وهكذا تمضى

(١) القصص، الآية: ٧
(٢) القصص، الآيات ٧ ـ ١٠
(٣) طه، الآيات: ٣٧ ـ ٣٩

إرادة الله ويتحقق أمره، ويتربى موسى على يدى عدوه الذى قتل المئات من الولدان ليقتله فيمن يقتل، ولكن إرادة الله لا غالب لها، ولا يغنى حذر من قدر.

وقبل أن ننتقل إلى المرحلة التالية نقف عند قول الله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ ونتساءل: ما المقصود من كلمة (أوحينا) هل يقصد بها الوحى الذى يأتى الأنبياء؟ أم ماذا؟

يذهب العلماء جميعا إلا ابن حزم إلى أن المقصود الإلهام؛ لأن من شرط النبوة الذكورة، ولكن ابن حزم التزاما بمذهبه الذى يحمل الألفاظ على ظاهرها يقول: إنه الوحى الذى يجىء للأنبياء، وهو لهذا يقول: «**إن أم موسى وأم عيسى وامرأة فرعون كن نبيات**».

٣ ـ تحقيق وعد الله بعودة موسى إلى أمه بعد أن حرم عليه المراضع:

بدأت حركة نشطة فى قصر فرعون تعمل على تأمين احتياجات الوافد الجديد، الذى ألقاه اليم إليهم، بعد أن أقنعت امرأة فرعون زوجها باتخاذه ولدا، ولكن القلق بدأ يلقى بظلاله على القائمين على أمر الوليد، والمسئولين عن رعايته؛ لأنه رفض كل المراضع التى عرضت عليه، وخشى على حياة الوليد إذا لم توجد وسيلة تجعله يقبل على الرضاعة كما يفعل كل الأطفال الرضع، وبينما يسعى كل من فى قصر فرعون من المكلفين بأمر الوليد إلى البحث عن حل لهذا الوضع المحيِّر، تتقدم أخت موسى فتعرض عليهم أن تدلهم على من يكفله لهم بعد أن وجهتها أمها لتقص أخبار أخيها، وما كادت أخت موسى تتقدم بهذا العرض حتى جاء القبول به على جناح السرعة، وجاءت أم موسى لتتولى إرضاعه، ولما طلب إليها أن تظل فى قصر فرعون لتقوم بشئون الرضيع اعتذرت بارتباطها بأمور بيتها، وانتهى الأمر بأن يذهب موسى إلى أمه كل يوم لتراه وترعاه وترضعه وتعلم أن وعد الله حق لا ريب فيه، وعن هذه الظروف يقول القرآن الكريم: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ

مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

٤ ـ موسى فى بيت فرعون:

قضى موسى ـ عليه السلام ـ سنوات طفولته وصباه وشبابه فى بيت فرعون، ولم تمض هذه السنوات بدون مفاجآت، فقد ذكرت كتب قصص الأنبياء أن موسى ـ عليه السلام ـ وهو طفل صغير عبث بلحية فرعون، فهاج غضبه لذلك وعزم على قتله لولا أن تدخلت امرأة فرعون قائلة: إنه طفل صغير لا يعقل، ولا يقصد الإساءة إلى فرعون، ودللت على ذلك بأن أمرت أن يقدم لموسى جمرة ودرة، وأنه لا يفرق بين هذه وتلك، وقد ألهمه الله أن يأخذ الجمرة ويلقيها فى فمه، عند ذلك تراجع فرعون عن عزمه على قتله، وهكذا أراد الله لموسى أن ينجو من القتل وأن يبلغ الكتاب أجله، وقيل: إن دعاء موسى ربه لما جاءته النبوة أن يحلّ عقدة من لسانه بسبب ما أصاب لسانه وهو صغير من هذه الجمرة.

ومضت السنون بموسى حتى بلغ الشباب، وعرف أنه إسرائيلى وليس قبطيا، وتناقل الناس هذا الأمر خارج قصر فرعون حتى بات معروفا للإسرائيليين وأهل مصر على السواء، وبينما موسى ـ عليه السلام ـ يجتاز ببعض مناطق المدينة إذا به يبصر اثنين يتقاتلان، أحدهما إسرائيلى، والآخر قبطى، فلما أبصر به الإسرائيلى استغاث به، فوكز القبطى وكزة أدت إلى موته، وتكرر هذا الحدث فى اليوم التالى، وإذا بنفس الرجل الإسرائيلى يتقاتل مع رجل آخر، وأدرك موسى ـ عليه السلام ـ أن الرجل عامل من عوامل الشغب وعدم الاستقرار، فقال له: إنك لَغَوِىٌّ مبين، وفى هذا الموقف عرف أن موسى هو قاتل الرجل الذى مات بالأمس، وانتشر الأمر بين الناس، وقرر رجال فرعون أن يقتلوا موسى، حتى جاء من ينصحه بالخروج والنجاة بنفسه، وفى تصوير هذه الأحداث يقول القرآن الكريم: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

(١) القصص، الآيات: ١١ ـ ١٣

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (15) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ (17) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ ۚ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ (18) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾(1).

٥- الخروج من مصر إلى أرض مدين:

أحسّ موسى - عليه السلام - بالخطر يتهدد حياته بعدما استمع إلى نصيحة ذلك القادم من أقصى المدينة وأخبره بما يأتمر به رجال فرعون، وسأل الله أن ينجّيه من هؤلاء الظالمين، فقد انكشف الأمر، وصرّحت العداوة بينه وبين رجال فرعون، وفى هذا يقول القرآن الكريم: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (21) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22) وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(2).

وفى هذه المرحلة ودع موسى - عليه السلام - فترة الراحة والحياة الآمنة، وبدأ فترة المتاعب والمصاعب والخوف والمطاردة والغناء الشديد الذى لاقاه فى تلك الرحلة المضنية التى قطعها مشيا على الأقدام بدون طعام ولاشراب، ولا مأوى،

---

(1) القصص، الآيات: ١٤ - ٢١

(2) القصص، الآيات: ٢١ - ٢٤

وقد يمكن تصور مدى المتاعب التى لاقاها نبى الله موسى حينما نحاول أن نتعرف على موقع أرض مدين التى أشارت إليها الآيات، إن موسى ـ عليه السلام ـ خرج من عاصمة مصر التى كانت تقع آنذاك جنوب القاهرة الحالية متجها نحو الشرق مجتازا الصحراء الممتدة من شرق القاهرة إلى السويس مندفعا فى سيناء التى لم يكن يفصلها عن بقية أرض مصر آنذاك فاصل؛ إذ كانت الأرض ممتدة متصلة حتى أقصى الجنوب من جزيرة العرب، ويغلب على الظن أن أرض مدين كانت تقع فى سيناء على مقربة من فلسطين والأردن، وأن أرض سيناء كانت مسرحا لما جرى بعد ذلك من أحداث إلى أن رجع موسى إلى مصر داعيا فرعون إلى الإيمان، وكذلك بعد أن خرج من مصر ومعه بنو إسرائيل، وفيها كتب عليهم التيه أربعين سنة لما رفضوا دعوة موسى إلى دخول الأرض المقدسة خشية من القوم الجبارين الذين يسكنونها، والتى ذكرها القرآن الكريم فى قوله تعالى على لسان موسى: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾(١).

٦ـ لقاء موسى بشعيب عليهما السلام:

لما عادت ابنتا شعيب على غير العادة مبكرتين لفت ذلك انتباه أبيهما، فقصتا عليه ما وقع عند البئر، وسُقْيا موسى لهما، واقترحت إحداهما على أبيها أن يستأجره؛ لأن فيه صفتين تؤهلانه للقيام بهذه المهمة على خير وجه، وهما القوة

(١) المائدة، الآيات: ٢١ ـ ٢٦

والأمانة، ووافق الشيخ على اقتراح ابنته، وبعث بها لتدعوه إلى لقائه، وعند لقائهما قصّ موسى - عليه السلام - على الشيخ قصة مطاردة قوم فرعون له، فطمأنه وأخبره أنه صار فى مكان آمن من أن يناله أذى من هؤلاء القوم الظالمين، وعرض عليه أن يتزوج إحدى ابنتيه على أن يقوم بالعمل له ثمانى سنوات أو عشرا إن أراد، وبدأ موسى - عليه السلام - حياة آمنة مطمئنة مع ذلك الشيخ الكبير، وقد ذهبنا إلى أن هذا الشيخ الكبير هو شعيب - عليه السلام - تبعا لما قال به أكثرية العلماء؛ ولكن هناك من يقول: إن الشيخ لم يكن شعيبا؛ لأن شعيبا كان قبل ذلك بزمن بعيد، وإنما هو من قومه إما ابن أخيه أو ابن عمه، ويورد العلماء هنا تفصيلا للقاء خلاصته أن الشيخ عرض على موسى الطعام فامتنع خشية أن يكون ذلك عوضا عما قام به من عمل من أعمال المروءة، وهو إنما أراد بما صنع وجه الله، فأخبره الشيخ أن هذه عادته وعادة آبائه من قبله، وفى تصوير أحداث هذه المرحلة يقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾[1].

وهنا نرى أن أجر عمل موسى هذه السنوات كان مهرا نزوجته، فهل يظل هذا أمرا معمولا به فى شرعنا؟ إننا حينما نستعرض بعض الأحداث التى وقعت على عهد رسول الله ﷺ نرى أن رجلا أراد أن يتزوج ولم يكن عنده ما يتزوج به، وأن رسول الله ﷺ لما عرف أنه كَانَ يَحفظُ شَيْئاً مِنَ القُرآن زوّجهُ مِنهَا عَلَى أَنْ يعلّمها مَا يحفظُ مِنَ القُرآنِ الكَرِيمِ. وهذا ليس شيئاً مقبوضا، ويعنى أن أجر

(1) القصص، الآيات: ٢٥ - ٢٨

العمل يصح أن يكون مهرا فى شرعنا، والقاعدة الفقهية تقول: شرع من قبلنا شرع لنا إذا لم يرد فى شرعنا ما يخالفه.

٧ـ اختيار الله لموسى ووحيه له إيذانا ببدء النبوة:

بعد أن قضى موسى ـ عليه السلام ـ فترة العمل التى اتفق عليها صحب أهله وخرج. وقَد سئل رَسُولُ الله ﷺ أىّ الأَجَلَيْن قَضَى مُوسَى عَلَيْه السَّلاَم؟ قَالَ: **«أوفاهما»** ويفهم من آيات القرآن الكريم أن موسى ـ عليه السلام ـ لما خرج كان الوقت شتاء، وأن الليل أدركه فى الطريق؛ فلذلك حاول أن يجد لأهله جذوة من النار يصطلون بها، أو أن يكشف له ضوء النار معالم الطريق، وقد تناول القرآن الكريم مشاهد هذه الرحلة فى سورتين، هما: القصص، وطه، أما آيات القصص فتقول: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْـَٔامِنِينَ ﴾(1).

وأما آيات سورة طه فتقول: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾

(١) القصص، الآيات: ٢٩ ـ ٣١

﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾(1). وبعد قراءة هذه الآيات الكريمات يتبادر إلى الذهن تساؤل: أين كان مسرح هذه الأحداث؟ وأين يقع الوادى الأيمن؟ والوادى المقدس طوى؟ وهل الوادى الأيمن والوادى المقدس طوى اسمان لشيء واحد؟ أم هما مكانان؟ والذى يفهم من الآيات أنهما اسم لمكان واحد، ويغلب على الظن أن ذلك المكان موقعه فى أرض سيناء، ولكن ليس بأيدينا دليل قاطع على ذلك.

وإذا أردنا أن نتعرف على المناهج التى استعملت فى المراحل التى عرضناها حتى الآن من حياة موسى ـ عليه السلام ـ فإننا نرى أنها ربانية المصدر، وأنها تدخل فى تقسيم المناهج من حيث مصدرها؛ ولهذا فهى مناهج ربانية معصومة عن الخطأ، وهى أصل لغيرها؛ لأنها من لدن عليم حكيم سبحانه وتعالى.

٨ ـ دعاء موسى ـ عليه السلام ـ ربه أن يؤيده ببعض الوسائل الذاتية ويشد عضده بأخيه هارون عليه السلام:

أدرك نبى الله موسى ـ عليه السلام ـ عظم المسئولية الملقاة على عاتقه فاتجه إليه ـ سبحانه ـ بالدعاء أن يشرح صدره للنهوض بهذه المسئولية، وأن يمنحه القدرة على البيان للتعبير المقنع عما يريد إبلاغه من الدعوة إلى الله سبحانه، وأن يجعل الأمر سهلا عليه، وأن يكون له معين ووزير من أهله هو أخوه هارون ـ عليه السلام ـ وفى اتجاه موسى ـ عليه السلام ـ بهذه الدعوات إلى الله سبحانه تعليم للدعاة أن يطلبوا العون من الله، وأن يمنحهم الصدق فى القول والإخلاص فى العمل، يقول الله ـ سبحانه ـ على لسان موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾(2).

---

(1) طه، الآيات: ٩ ـ ٢٣

(2) طه، الآيات: ٢٥ ـ ٣٦

٩ـ أمر الله لموسى وهارون أن يتجها إلى فرعون:

لما أوحى الله لموسى أنه اختاره للنبوة، ودعا موسى ربه أن يؤيده بأخيه، واستجاب له، أمرهما أن يذهبا إلى فرعون لعله يعود عن طغيانه، وأوصاهما بأن تكون دعوتهما إياه بالرفق واللين، وفى هذا تعليم للدعاة كى يسلكوا سبيل الحكمة والموعظة الحسنة، وأن يكون الرفق هو السمة التى يتخلق بها الدعاة، «لأنَّ الرِّفْقَ لا يكُونُ فى شَىْءٍ إلاَّ زَانَهُ، ولا يُنْزعُ مِنْ شَىْءٍ إلاَّ شَانَهُ» وقد أرشدنا القرآن الكريم إلى أخلاق النبى ﷺ التى جمعت حوله القلوب، وفى مقدمتها الرحمة واللين والسلامة من الفظاظة والغلظة، يقول الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾(١) والدعاة فى حاجة ماسّة إلى أن يتعلموا من حياة الأنبياء ما يساعدهم على النجاح فى دعوتهم، فإن الله تعالى لم يذكر لنا قصصهم فى القرآن الكريم للمتعة والتسلية، وإنما ذكرها للعبرة والعظة كما يقول سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(٢).

وعلى هذا المنوال أمر الله نبيه موسى وهارون أن يَدْعُوا فرعون، يقول الله تعالى: ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾(٣).

---

(١) آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٢) يوسف، من الآية: ١١١

(٣) طه، الآيات: ٤٢ ـ ٤٨

ونلاحظ أن المنهج المستعمل فى هذه الآيات هو المنهج العاطفى، وأن الأسلوب هو أسلوب الموعظة الحسنة فى شكلى الترغيب والترهيب.

على أن القرآن الكريم قد أشار إلى أمر الله ـ سبحانه ـ لموسى أن يتوجه إلى فرعون فى سورة الشعراء فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾(١). وكذلك جاءت الإشارة إلى ذلك فى سورة القصص إجمالا.

١٠ ـ اللقاء بين موسى ـ عليه السلام ـ وفرعون، وما دار بينهما من حوار:

نرى فرعون فى هذه المرحلة ينكر على موسى أن يتوجه إليه بالدعوة إلى الله، ويذكره بتربيته وليدا فى بيته، ويحاول أن يتهم موسى تارة بالسحر وتارة بالجنون؛ ليصرف الملأ عن الاستماع إليه، ويجرّ موسى ـ عليه السلام ـ إلى قضايا فرعية تصرفه عن الدعوة إلى عبادة الله وترك ما سواه، ولكن موسى ـ عليه السلام ـ يواجه هذه المحاولات بالحديث عن الإله الذى له مافى السموات وما فى الأرض، الجدير بأن يعبد وحده. ويدرك فرعون ومن معه أنهم مخلوقون لله رب العالمين، وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا الحوار تفصيلا فى سورتى طه والشعراء، تقول آيات سورة طه: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ

---

(١) الشعراء، الآيات: ١٠ ـ ١٧

لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ ۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ ﴾[1].

ونلاحظ أن الآيات الأولى من هذا الحوار اتخذت المنهج العقلى وأسلوب المحاكمات العقلية، ثم أخذت تمزج بين المنهج العقلى والمنهج العاطفى فى الآيات التالية ابتداء من قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ مستعملا أسلوب الموعظة الحسنة فى شكل التذكير بالنعم.

أما آيات سورة الشعراء فقد بدأها فرعون بتذكير موسى - عليه السلام - بأيام طفولته وصباه التى قضاها فى بيته، وإقدامه على قتل رجل مصرى، ثم تابع الحوار على النمط الذى سبق، إلا أنه حاول أن يثير الملأ من قومه ضد موسى متهما إياه بالجنون، تقول الآيات: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ

(١) طه، الآيات: ٤٩ - ٥٨

﴿وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾[1].

ونجد أن المنهج العقلى يغلب على الحوار فى هذه الآيات، وكذلك أسلوب المحاكمات العقلية والجدل والمناظرة، ثم تضمنت الآيات المنهج الحسى حينما ألقى موسى عصاه وأخرج يده.

١١ ـ إبطال كيد السحرة ثم إيمانهم وتهديد فرعون لهم:

لما أصرّ فرعون على كفره بعد الحوار الذى دار بينه وبين موسى ـ عليه السلام ـ مهددا نبى الله موسى بأنه سيلقى به فى السجن لو اتخذ إلها غيره، ولما أظهر موسى المعجزات التى أيده الله بها من قلب العصا حيَّة، وإخراج يده بيضاء للناظرين أفهم فرعون قومه أن موسى ساحر، وأنهم لابد أن يواجهوه بسحرة مثله، وجمع فرعون السحرة من كل مدينة، ووعدهم ومنَّاهم بالمكانة والجوائز السخية، وحدد يوم عيد لهم يجتمع فيه الناس ليحضروا ويشاهدوا هذا الموقف الفريد.

وما كاد السحرة يرون سحرهم وقد بطل حتى أدركوا أن موسى ليس بساحر وإنما هو رسول كريم، فأعلنوا إيمانهم، وثارت ثائرة فرعون، فهددهم بالقتل والصلب فى جذوع النخل، فلم يبالوا بوعيده بعدما ظهرت لهم الآيات، وقالوا: آمنا برب هارون وموسى.

وفى وصف القرآن الكريم لهذا المشهد المثير وما وقع فيه من أحداث ومفاجآت يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ

(١) الشعراء، الآيات: ١٨ ـ ٣٧

مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ
يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ
ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ
أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي
نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ
إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ
وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾
قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ
﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ
عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ
وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾(١).

وفى سورة الشعراء يقول الله تعالى: ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾
يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي
الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ
﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ
السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ
﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا
لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ
﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُ

(١) طه، الآيات: ٥٧ ـ ٧٦

لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

وحينما نمعن النظر فى آيات القرآن الكريم التى تعاملت مع هذا الموقف سواء ما جاء فى سورة طه أو ما جاء فى سورة الشعراء نجد أنها قد استعملت أكثر من منهج وأكثر من أسلوب، ففى آيات سورة طه نرى استعمال المنهج العاطفى ابتداء من الآية التى تقول: ﴿ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ ونرى أن الأسلوب المستعمل فى هذه الآية هو أسلوب الموعظة الحسنة فى شكل الترهيب.

واستعمل كذلك المنهج الحسى ابتداء من قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴾ ونجد كذلك أسلوب التهديد والترهيب فى قول فرعون للسحرة: ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ وكذلك فى آيات سورة الشعراء نجد المنهج العاطفى وأسلوب الترغيب فى قول فرعون للسحرة لما قالوا له: ﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ ونجد أيضا أسلوب الترهيب والتهديد فى قول فرعون: ﴿ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

ونرى المنهج الحسى فى قوله تعالى: ﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾.

(١) الشعراء، الآيات: ٣٤ ـ ٥١

١٢. طلب فرعون من هامان أن يبنى له صرحا:

لما انتهى الموقف السابق بإيمان السحرة الذين حشدهم فرعون ليظهروا كذب ادعاء موسى انقلب الموقف رأسا على عقب، وربما دعا ذلك الكثيرين أن يفكروا فى الإيمان بما جاء به موسى، وربما يكون فرعون قد أدرك ذلك، فأراد أن يموه على عامة الناس، فطلب إلى هامان أن يبنى له صرحا ليصعد عليه ـ فى زعمه ـ ويتحدث مع إله موسى؛ لأنه يظن أن موسى كاذب، وفى ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾(١).

١٣. استبداد الغيظ بفرعون وإعلانه عن رغبته فى قتل موسى:

لم يستطع فرعون أن ينسى إيمان السحرة، وما يتركه ذلك من أثر فى نفوس العامة فتمادى فى تخبطه، وبعد أن طلب من هامان أن يبنى له صرحا أعلن أنه يريد قتل موسى؛ لأنه يخشى أن تؤثر دعوته فى أهل مصر فيتركوا دينهم ويتبعوا دين موسى، ولما بلغت هذه الصيحة الحاقدة أسماع موسى استعاذ بالله من كل متكبر جبار، يقول الله تعالى فى هذا المعنى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾(٢).

وكان هذا الإعلان من فرعون عن رغبته فى قتل موسى سببا فى أن يتكشف أن هناك مؤمنين بموسى من قوم فرعون، ولم يجدوا بدا من أن يعلنوا عن إيمانهم

---

(١) غافر، الآيتان: ٣٦، ٣٧

(٢) غافر، الآيات: ٢٣ ـ ٢٧

لما أحسوا بالخطر يتهدد صاحب الدعوة موسى - عليه السلام - فأخذ أحدهم يعيب على فرعون وقومه عزمهم على إيذاء موسى، ويحذرهم من العواقب؛ حتى لا يغتروا بما هم فيه من ملك وسلطان، فيوشك ذلك أن ينحسر عنهم، ويواجهوا مصيرهم حين لا يجدون حجة يتعللون بها.

وهذا يعنى أن دعوة موسى قد وجدت طريقها إلى قلوب أناس من قوم فرعون بعدما رأوا الآيات التى لا يسع منصفا أن يتجاهلها، وعن هذا الموقف يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾(1).

ونلمح فى الجزء الأول من الآيات التى عرضت موقف مؤمن آل فرعون استعمال المنهج العقلى، والمحاكمات العقلية كأسلوب لهذا المنهج العقلى.

أما الآيات التى بدأت بقوله تعالى: ﴿... إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ... إلخ﴾ فإن المنهج العاطفى هو الغالب عليها وأسلوب الموعظة الحسنة فى شكل الترهيب.

---

(1) غافر، الآيات: ٢٨ - ٣٤

١٤ـ ابتلاء الله آل فرعون بألوان من العذاب:

لما تمادى فرعون وقومه فى تكذيب نبى الله موسى ـ عليه السلام ـ بعدما رأوا من الآيات والمعجزات التى أيده الله بها، وما بدا من تكبر فرعون وطغيانه لما قال لقومه: ما علمت لكم من إله غيرى، وطلبه إلى هامان أن يبنى له صرحا، وعزمه على قتل موسى، وطاعة قومه له فى ادعائه، واستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين، ابتلاهم الله بإرسال الجراد عليهم والقمل والضفادع، واختلاط الدم بالماء يشربونه؛ لعلهم يعودون إلى الحق، وينتهون إلى الصواب الذى ضلوا عنه، فلما رأوا ما هم فيه من منغصات أرسلها الله عليهم بسبب كفرهم لجأوا إلى موسى يطلبون إليه أن يدعو ربه ليصرف عنهم ما يعانون من البلاء، وحينما يصرف الله عنهم ما هم فيه سيؤمنون بموسى وسيرسلون معه بنى إسرائيل، فدعا موسى ربه فصرف عنهم، وكان المنتظر أن يؤمنوا بعدما رأوا، ووفاء بما وعدوا به، ولكنهم نكثوا ما عاهدوا عليه، وعادوا إلى طغيانهم وكفرهم؛ ولذلك حلت عليهم نقمة الله، يقول القرآن الكريم فى هذه المرحلة: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾[١].

وقد أشار القرآن الكريم إلى نفس المرحلة فى سورة الزخرف ولكن فى إيجاز

(١) الأعراف، الآيات: ١٣٠ ـ ١٣٥.

حيث يقول سبحانه: ﴿ وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴾(١).

غطى الكفر والعناد على بصيرة فرعون فلم ينتفع بما رأى من الآيات الباهرات، ولم يتعظ قومه بما رأوا من آثار قدرة الله حينما صرف عنهم أنواع البلاء استجابة لدعوة موسى - عليه السلام - وتابعوا فرعون فى ادعائه وافتخاره بما لديه من ملك وقصور تجرى من تحتها الأنهار، وما يمتلكه من زينة الحياة الدنيا التى ليس لدى موسى - عليه السلام - شىء منها؛ ولهذا كان هذا الطغيان وذلك الكفران سببا إلى أن يحل بهم الغرق، وينزل بهم عذاب الله، ويعبر القرآن الكريم عن الفترة التى سبقت الغرق فيقول: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴾(٢).

١٥ - انفلاق البحر، ونجاة بنى إسرائيل، وغرق فرعون وقومه:

حشد فرعون ماشاء من رجاله، ودعاهم إلى القضاء على موسى وبنى إسرائيل، وكان موسى - عليه السلام - قد خرج ببنى إسرائيل ليلا متجها نحو الشرق، ولما رأوا فرعون ومن معه يتابعونهم تملكهم الخوف والقلق خشية من أن يلحق بهم فرعون ورجاله، وأخبروا موسى بما يساورهم من خوف وقلق، فطمأنهم موسى - عليه السلام - قائلا: إن معى ربى سيهدينى. ولما دنوا من شاطىء البحر أوحى الله إلى نبيه موسى - عليه السلام - أن يضرب البحر بعصاه، فانحسر الماء إلى جانبين، كل منهما كالجبل العظيم، وتهيأ لموسى ومن معه طريق يابس فى البحر، فعبروا البحر، وتبعهم فرعون ومن معه من رجاله، فأطبق

(١) الزخرف، الآيتان: ٤٩، ٥٠

(٢) الزخرف، الآيات ٥١ - ٥٦

عليهم الماء فغرقوا، يحدثنا القرآن الكريم عن هذا الحدث فى عدة مواضع، فى سورة البقرة، والأعراف، ويونس، وطه، والشعراء، والدخان، وسور أخرى.

وتقول آيات سورة الشعراء: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

أما آيات سورة طه فتقول: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ (٧٧) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ﴾(٢).

وتحدثنا آيات سورة يونس أن فرعون لما أدركه الغرق أعلن إيمانه بإله بنى إسرائيل، وأن الله نجى بدنه ليكون عظة للناس وعبرة، تقول الآيات: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾(٣).

ولو أردنا أن نتعرف على نوع المناهج والأساليب التى استعملت فى الآيات السالفة لرأينا المنهج الحسى واضحا فيها؛ إذ أمر الله موسى أن يضرب البحر

(١) الشعراء، الآيات: ٥٢ ـ ٦٧

(٢) طه، الآيات: ٧٧ ـ ٧٩

(٣) يونس، الآيات: ٩٠ ـ ٩٢

بعصاه فانفلق إلى فرقين عظيمين، كل فرق كالطود العظيم، وقد رأى بنو إسرائيل وفرعون وجنوده انحسار ماء البحر، واتخذوا لهم فيه طريقا، وانحسر الحادث الخارق للعادة عن نجاة بنى إسرائيل وغرق فرعون وجنوده، وهذه كلها أمور محسوسة رآها وعايشها من كان هناك من الفريقين.

وإلى هذا الحد من أحداث دعوة موسى ـ عليه السلام ـ انتهى الصراع بين الحق الذى جاء به موسى وبين الباطل الذى كان يمثله فرعون بادعائه الألوهية، ولكن بدأ طور آخر من دعوة موسى ـ عليه السلام ـ يتمثل فى موقف بنى إسرائيل بعد أن نجاهم الله من العذاب والقتل، وقد رأوا من آيات الله التى آتاها لنبيه موسى ما يجعلهم فى الذروة من اليقين والاستجابة والإيمان بالله الذى أرسل لهم موسى ونجاهم على يديه من البلاء الذى عانى منه أجيالهم قبل أن يرسل الله إليهم موسى، وقوم قد عايشوا هذه الأحداث ورأوا ما صنع الله لهم رأى العين كان المنتظر أن يكونوا نموذجا للطاعة والاستسلام لأمر الله واتباع ما يدعوهم إليه نبيهم ـ عليه السلام ـ ولكن بنى إسرائيل سرعان ما نسوا كل ذلك حينما رأوا قوما يعكفون على أصنام لهم، فطلبوا إلى موسى أن يجعل لهم إلها مثل هذه الآلهة، وهذا الطلب الغريب أول المظاهر التى بدت من بنى إسرائيل التى تدل على كفرانهم لنعم الله عليهم، ونكرانهم لحسن ما صنع الله بهم.

❁❁❁

مظاهر تمرد بنى إسرائيل ونكرانهم للجميل

١ ـ طلب بنى إسرائيل من موسى أن يجعل لهم إلها:

لم يكد بنو إسرائيل ينجون من فرعون وجنوده حتى نسوا كل ما صنع الله من أجلهم، فأخذ العجب من موسى كل مأخذ، كيف يفكر هؤلاء فى اتخاذ إله من الأصنام، وقد أهلك الله عدوهم، ولذلك دمغهم بالجهل، وأخذت الآيات التى تناولت هذا الموقف تذكرهم بالأمس القريب الذى كانوا يعانون فيه من البلاء العظيم، لما كان فرعون يقتل أبناءهم ويستبقى نساءهم، وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾(١)

٢ ـ اتخاذهم العجل:

لما ذهب موسى ـ عليه السلام ـ لميقات ربه استخلف أخاه هارون ـ عليه السلام ـ على بنى إسرائيل، وأثناء ذلك صنع لهم السامرى عجلا من الذهب الذى أخذوه معهم من قوم فرعون، وعكفوا على عبادته، ولم يستمعوا إلى نصح هارون ـ عليه السلام ـ لهم ونهيه إياهم عن هذا الكفر مذكرا إياهم أن الله هو إلههم، لكنهم أصروا على عبادة العجل حتى يرجع إليهم موسى، وكانت

(١) الأعراف، الآيات: ١٣٨ ـ ١٤١

غيبة موسى قد استمرت أربعين ليلة كما قال تعالى: ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾(١). وقد أخبره الله أن قومه قد فتنوا باتخاذهم العجل إلها، وقد تحدث القرآن الكريم عن هذا الموقف في سورتي الأعراف وطه، أما آيات سورة الأعراف فتقول: ﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾(٢).

وأما آيات سورة طه فتقول: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ

(١) الأعراف، من الآية: ١٤٢

(٢) الأعراف، الآيات: ١٤٨ - ١٥٢

أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴾(١).

٣ـ طلبهم رؤية الله جهرة:

وهذا مظهر آخر من مظاهر تمرد بنى إسرائيل وعنتهم لنبى الله موسى ـ عليه السلام ـ حيث قالوا له: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة، وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾(٢).

٤ـ تبرمهم بنعمة الله عليهم:

وذلك أن موسى ـ عليه السلام ـ لما استسقى لهم وأمره الله بأن يضرب الحجر بعصاه ففجر لهم اثنتى عشرة عينا، ورزقهم بالمنّ والسلوى، وهذا لون راق من الطعام، ولكنهم ضاقوا بذلك، وطلبوا إلى موسى ـ عليه السلام ـ أن يدعو الله كى يخرج لهم من نبات الأرض، وفى ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ

---

(١) طه، الآيات: ٨٣ ـ ٩٨

(٢) البقرة، الآيتان: ٥٥ ، ٥٦

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾(1).

٥ ـ إيذاؤهم موسى ـ عليه السلام ـ بكثرة الأسئلة لما أمرهم بذبح البقرة:

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾(2).

٦ ـ رفضهم الاستجابة لأمر موسى:

لما أمرهم بدخول الأرض المقدسة؛ محتجين بأن فيها قوما جبارين؛ ولذلك عاقبهم الله بأن ضرب التيه عليهم أربعين سنة. وفي ذكر هذا الحدث يقول الله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا

---

(1) البقرة، الآية: ٦١

(2) البقرة، الآيات: ٦٧ ـ ٧١

﴿وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[1].

٧ـ تحريفهم للكتب السماوية:

وإخفاؤهم لبعض ما أوحى الله إلى أنبيائه لأنه لا يتفق مع أهوائهم، وكانوا يفعلون ذلك جريا وراء عرض قليل من المال يكسبونه، وأحيانا كانوا يكتبون بعض الأشياء يزعمون أنها من عند الله وهى ليست من عند الله، وهم فى الحقيقة يكذبون على الله فى ادعائهم هذا.

وقد أشار القرآن الكريم إلى أفعالهم هذه القبيحة، فبالنسبة لكتابة شىء من عند أنفسهم وادعائهم أنه من الوحى يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾[2].

وبالنسبة لإخفائهم بعض الوحى لأنه لا يتفق مع أهوائهم يقول الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾[3]. ويقول سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[4].

❁❁❁

(١) المائدة، الآيات: ٢١ ـ ٢٦

(٢) البقرة، الآيتان: ٧٨، ٧٩

(٣) المائدة، الآية: ١٥

(٤) الأنعام، الآية: ٩١

اللقاء بين نبى الله موسى والعبد الصالح

تروى الآثار التى جاءت حول هذا اللقاء سببين، أحدهما: أن رجلا من بنى إسرائيل سأل موسى: هل هناك من هو أعلم منك؟ فقال: لا. وثانيهما: أن موسى - عليه السلام - سأل ربه: هل هناك من هو أعلم منه، فقال: نعم، عبد لى عند مجمع البحرين، وقد أورد البخارى ما روى حول هذا اللقاء، وسنكتفى بإيراد الحديث الأول، الذى يرويه سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال: «قُلْت يا ابنَ عَبَّاس: إنَّ نَوْفًا البكالى يَزْعُمُ أنَّ مُوسَى صاحبَ الخضْر لَيسَ هُوَ مُوسَى صاحب بنى إسْرائيل، فَقَال ابْن عبَّاس: كَذَبَ عَدوُّ الله، حَدثَنى أُبَىُّ ابنُ كَعْب أنه سَمَع رَسُول الله ﷺ يَقُول: إنَّ مُوسَى قامَ خطيباً فى بَنى إسْرائيل فَسئل: أى النَّاس أَعْلَمُ؟ فقالَ: أنَا، فعتب الله عليه إذْ لَمْ يَردَّ العلْمَ إلَيْه، فَأَوْحَى الله إلَيْه: إنَّ لى عَبْداً بمَجْمَع البَحْرَيْن هُوَ أَعْلَم منْك، قال مُوسَى: يَارَبِّ فَكيْف لى به؟ قال تأخذ معك حوتا فَتَجْعله فى مكْتل، فحَيْثُما فَقَدْت الحُوت فهو ثَمَّ، فَأَخذ حوتا فَجعله فى مكْتل ثُمّ انطلَق، وانْطَلَق مَعَه فَتاه يُوشع بن نون حَتى إذَا أَتيا الصَّخْرة وَضَعا رُءُوسَهُما فَنَاما، واضْطَرب الحُوت فى المكْتَلِ فَخرَج منْه فَسَقط فى البحْر فاتخذ سَبيلهُ فى البحْر سَرباً، وأَمْسك الله عن الحوت جَرْية الماء فَصَار عليه مثْل الطَّاق، فلما اسْتَيْقَظَا نسى صاحبهُ أنْ يخبرهُ بالحوت فَانْطَلَقا بقية يوْمهما ولَيْلَتهما، حتى إذا كانَ منَ الغَد قَال مُوسَى لفَتَاهُ: آتنا غَداءَنَا لَقَد لَقينا من سَفَرنا هَذَا نَصبًا، قال: ولَمْ يَجدْ مُوسَى النَّصَب حَتَّى جاَوزا المكان الذى أَمَر الله به، فَقَال له فَتَاهُ:

أرأيْت إذْ أَوينَا إلَى الصَّخرة؟ فإنِّى نَسيتُ الَحوتَ وَمَا أَنْسَانيه إلاَّ الشَّيطان أَنْ أَذكُرَهُ، واتخذ سَبِيلَهُ في البحْر عَجَبا، قالَ فكانَ للحوت سَرَبًا ولموسى ولفَتاه عجبا، قَال مُوسى: ذلَك ما كنا نَبْغى فَارْتَدًا على آثارهما قَصَصًا، قال: رَجَعا يَقُصَّان آثارهُمَا حتَّى انتَهيَا إلى الصَّخْرة، فإذَا رَجل مُسَجّى ثوْباً، فَسَلّمَ علَيْه موسَى، فَقَال الخضرُ وأَنى بأرْضك السَّلامُ؟ قال: أَنَا مُوسَى. قالَ: مُوسى بنى إسْرائيل؟ قَال: نَعَمْ أَتَيْتُك لتُعَلِّمنى ممَّا عُلِّمْتَ رُشداً، قال: إنَّك لَنْ تَستطيع مَعى صَبْرا يَا مُوسَى، إنّى عَلَى علم منْ علم الله عَلمنيه لاَ تَعْلَمُه أَنْتَ، وَأَنْت عَلَى علم منْ علم الله عَلّمَكَ الله لاَ أَعْلَمُه، فَقَال مُوسَى: ستَجدنُى إنْ شَاء الله صَابراً ولا أَعْصى لَكَ أَمْراً، قَالَ لَهُ الخضر: فإن اتبعتنى فَلا تَسْأَلنى عَنْ شَىْء حَتَّى أُحْدثَ لَكَ منْه ذكْرا، فانْطلقا يمشيَان عَلَى سَاحل البَحْر، فَمرَّتْ سَفينةٌ، فكَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْملُوهُمْ فَعَرفُوا الخضْر فَحَملوهُ بغَيْر نَوْل، فَلَمَّا رَكبَا في السَّفينة لَمْ يُفجأ إلاَّ والخضْر قَدْ قَلَعَ لَوْحاً منْ أَلْواح السَّفينة بالقدُّوم، فقَال لَهُ مُوسَى: قَوْم حَملُونا بغَيْر نَوْل، عَمَدْتَ إلى سَفينَتهمْ فخرقْتَها لتُغْرق أَهْلَهَا؟ قَدْ جئْتَ شَيْئاً إمراً. قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إنَّكَ لَنْ تَسْتطيع مَعى صَبْراً؟ قَال: لا تُؤاخذْنى بمَا نَسيتُ وَلا تُرهقْنى منْ أَمرى عُسْراً. قَالَ: وَقَال رَسُول الله ﷺ: وَكانت الأُولَى منْ مُوسىَ نسْياناً، قَال: وَجَاء عُصْفُور فَوقَع عَلى حَرْف السَّفينَة، فَنقَر في البَحْر نَقْرَةً، فَقَالَ لَهُ الخضرُ: مَا علْمى وَعلْمُك منْ علْم الله إلا مثْلَ مَا نَقَص هَذَا العُصفُور من البَحْر، ثُمَّ خَرجا من السَّفينة، فَبَيْنما هما يَمْشيان عَلَى السَّاحل إذْ أَبْصرَ الخضْر غُلاماً يَلعَبُ مَعَ الغلْمَان، فَأَخَذَ الخضر رأْسَه بيده فَاقْتَلعهُ بيَده فَقَتَلَهُ، فقَال لَهُ مُوسَى: أَقَتلْتَ نَفْساً زاكيَة بغَيْر نَفْس؟ لَقَدْ جئت شَيْئاً نُكْراً، قَالَ: أَلَمْ أَقُلْ لَك إنَّكَ لَنْ تَستَطيع مَعى صَبْراً؟ قَالَ: وَهَذه أَشَدُّ منَ الأُولَى قَال: إنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شىْء بَعْدَهَا فَلا تُصاحبْنى قَدْ بَلَغْتَ من لَّدنِّى عُذْراً، فانطَلَقا حتى إذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَة اسْتَطعما أَهْلها فأَبوا أَنْ يُضيِّفوهُما، فَوَجَدا فيها جداراً يريد

أَنْ يَنْقض ـ قال: مائل ـ فقام الخضر فأقامه بيده. فقال موسى: قوم أَتَيْناهُمْ فَلَمْ يُطعمونا ولَمْ يُضيِّفُونَا، لَوْ شئْتَ لاتخذت عَلَيْه أَجْرا، قال: هَذَا فراق بَيْنى وبَيْنك.. إلى آخر الآيات. فقال رسُولُ الله ﷺ: وَدِدْنَا أَنَّ مُوسَى كَان صَبَرَ حَتَّى يَقُصَّ الله عَلَيْنَا خَبَرهُما»(١).

وقد قصت علينا سورة الكهف سعى موسى ـ عليه السلام ـ للقاء العبد الصالح وطلبه إلى أن يصحبه ليتعلم منه، والأحداث التى وقعت واعتراض موسى وتفسير الخضر للأمور التى أثارت موسى ـ عليه السلام ـ يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۚ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ۚ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧)

(١) راجع فتح البارى شرح صحيح البخارى ج٨ ص٤٠٩، ٤١٠

قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾(١).

وقد اختلف العلماء فى تحديد مجمع البحرين، هل هو: بحر فارس والروم أو هما الكر والرس حيث يصبان فى البحر؟ أو ذراع فى أرض فارس من جهة أذربيجان يخرج من البحر المحيط من شماليه إلى جنوبيه وطرفيه مما يلى الشام. أو بحر الأردن والقلزم؟ أو مجمع البحرين بطنجة؟ أو أرمينية أو أفريقيا؟(٢).

واختلف فى العبد الصالح: هل هو نبى أو ليس بنبى؟ يرى أغلب العلماء أنه ليس بنبى، ويرى فريق آخر أنه نبى، وإذا أردنا أن ندلى بدلونا فى الدلاء، وننظر فى أى الرأيين أرجح فإننا حينما نمعن النظر فى الآيات التى قصت هذه القصة نجد أن العبد الصالح قال فى ختامها بعد أن بين لموسى ـ عليه السلام ـ الأسباب التى دفعته إلى الإقدام على ما صنع والتى أثارت اعتراض موسى ـ عليه السلام ـ نراه بعد أن بين ذلك يعقب قائلا: وما فعلته عن أمرى. يعنى أن الأمر بذلك قد جاءه من الله سبحانه. والأمر من الله إلى عباده يكون عن طريق الوحى، والوحى لا يأتى إلا إلى الأنبياء ـ عليهم السلام ـ وهذا يعنى أن العبد الصالح كان نبيا، يؤكد هذا الاستنتاج ماجاء فى الحديث حينما أخبره موسى باسمه، فكان تعليقه: موسى بنى إسرائيل؟ وقوله لموسى: إنى على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه. ثم قوله لموسى ـ عليه

(١) الكهف، الآيات: ٦٠ ـ ٨٢

(٢) راجع فتح البارى، ج٨ ص٤١٠

السلام ـ لما جاء عصفور فنقر فى البحر نقرة: ما علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

وقد صرح الحديث بأن اسمه الخضر، وقد ثار خلاف حول بقاء الخضر حيّا، فقال بحياته عدد من الناس، وكثر الحديث عن حياته ولقائه بالناس وحديثه إليهم بين شيوخ الصوفية، وأنكر جمهور العلماء ذلك؛ لأن الله ـ سبحانه ـ يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾[1]. ولأن النبى ﷺ قال ما معناه: «**لا تَبْقى عَلَى وَجْه الأَرْضِ نَفْس مَنْفُوسَة بَعْد مائة عَامٍ من الآن**» ولأنه لو كان حيا لالتقى بالنبى ﷺ ولم يقل أحد بهذا، وكل ما روى أن رسول الله ﷺ لما مات، وجاءت التعزية سمعوا صوتا من ناحية البيت: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، إن فى الله عزاء من كل مصيبة، وخلفا من كل هالك، ودركا من كل فائت، فبالله فثقوا، وإياه فارجوا، فإنما المصاب من حرم الثواب. . فقال على ـ رضى الله عنه ـ: أتدرون من هذا؟ هذا الخضر عليه السلام[2].

وقد علق ابن كثير على هذا الحديث بعد إيراده بقوله: وهذا الحديث مرسل، وفى إسناده ضعف بحال القاسم العمرى هذا، فإنه قد ضعفه غير واحد من الأئمة، وتركه بالكلية آخرون[3].

والخلاصة أنه ثار خلاف بين العلماء حول نبوة الخضر، وحول حياته، فأقر بنبوته جماعة ورفضها آخرون، وقد أشرنا إلى ترجيح نبوته للأدلة التى سبق عرضها. وكذلك اختلفوا فى بقائه حيا أو موته، فقال بحياته جماعة وبخاصة الصوفية، وأنكر ذلك آخرون، وعرضنا أدلة هؤلاء القائلين بموته، ورجحنا هذا الرأى لأن الأدلة تشهد له، وبعد أن عرضنا هذا اللقاء بين موسى والخضر ـ عليهما السلام ـ يرد سؤال: ماذا نستفيد من ذلك؟

(١) الأنبياء، الآية: ٣٤

(٢) السيرة النبوية لابن كثير، ج٤ ص٥٥٠

(٣) المصدر السابق

ويستفاد من هذا اللقاء ما يلى:

١ ـ أن الإنسان مهما أوتى من علم فإن ما لم يعلم أكثر مما علم، والله سبحانه يقول: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾(١).

٢ ـ أن الإنسان مطالب بالصبر على ما لم يعرف حتى يتبين له حقيقة ما جهله، ويستفاد ذلك من الحوار الذى دار بين موسى والخضر عليهما السلام.

٣ ـ أن الإنسان يسعى لتحصيل العلم مهما بلغ من درجاته، ويؤخذ ذلك من قوله تعالى على لسان موسى للخضر ـ عليهما السلام ـ: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴾(٢).

٤ ـ أن على طالب العلم أن يتحلى بالتواضع والأدب مع من يتعلم على يديه، وهو مفهوم قول موسى للخضر ـ عليهما السلام ـ: ﴿ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾.

٥ ـ أن العالم مهما بلغ من علمه لابد أن ينسب العلم إلى صاحبه، وهذا مفهوم من قول الخضر: ﴿ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ﴾(٣).

الدروس المستفادة من دعوة موسى عليه السلام:

يستفيد الدعاة من دراستهم لدعوة موسى ـ عليه السلام ـ ما يلى:

أ ـ مقابلة الابتلاء بالرضا، وذلك من قوله: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴾(٤).

ب ـ التوكل على الله يهيىء لصاحبه سبل النجاة؛ فقد بعث الله إلى موسى من حذره من تآمر الملأ من قوم فرعون، ويؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَ

(١) سورة الإسراء، من الآية: ٨٥
(٢) سورة الكهف، من الآية: ٦٦
(٣) سورة الكهف، من الآية: ٨٢
(٤) سورة القصص، من الآية: ٢٤

رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴾[1].

ج ـ الثقة فى وعد الله تعطى صاحبها القدرة على الثبات واليقين حتى يتمكن من التغلب على الصعاب، ويؤخذ ذلك من قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾[2].

د ـ أن صاحب الحق لا يبالى بمن خالفه مهما كانت مكانته، ويؤخذ هذا من موقف السحرة بعد إيمانهم وعدم مبالاتهم بفرعون وتهديده، وإلى ذلك يشير القرآن الكريم: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾[3].

هـ ـ أن الحق لا يعدم نصيرا فى أحلك الظروف وأقساها، وخير دليل على ذلك موقف الرجل الذى كان يكتم إيمانه لما أحس بالخطر يتهدد صاحب الدعوة موسى ـ عليه السلام ـ جهر بإيمانه وأخذ يدافع عن الحق وصاحبه، وفى ذلك يقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾[4].

و ـ أن الصبر يأتى بالنتائج الطيبة لأصحابه، فصبر موسى ـ عليه السلام ـ كان عاقبته النجاح، وإنجاء الله له ولمن معه من فرعون وظلمه.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٢٠

(٢) سورة الشعراء، الآيتان: ٦١، ٦٢

(٣) سورة طه، الآيتان: ٧٢، ٧٣

(٤) غافر، الآية: ٢٨

ز ـ أن الداعية لابد أن يتحلى بالحلم والرأفة والرفق والرحمة بمن يدعوهم، حتى وإن أساءوا، فقد رأينا موسى ـ عليه السلام ـ رفيقا بقومه على الرغم من العنت الذى واجهه منهم، حينما طلبوا إليه أن يروا الله جهرة، وحينما أعلنوا تبرمهم بطعام المن والسلوى الذى أنزل الله عليهم تكرمة لموسى وقالوا: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾[1]. وحينما أمرهم بذبح البقرة وحينما طلبوا إليه أن يجعل لهم آلهة من الأصنام بقولهم: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[2].

* * *

(١) البقرة، من الآية: ٦١

(٢) سورة الأعراف، من الآية: ١٣٨

دعوة عيسى عليه السلام

عيسى - عليه السلام - أحد أولى العزم من الرسل، وهو كلمة الله وروح منه، تردد اسمه فى القرآن الكريم خمسا وعشرين مرة، جاءت فى إحدى عشرة سورة، وقد أشار الحديث النبوى إلى أنه بشر برسول الله ﷺ فى قوله صلوات الله عليه: **«أنا دعوة أبى إبراهيم، وبشارة أخى عيسى»** وقد جاءت هذه البشارة فى سورة الصف من القرآن الكريم، حيث يقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾(1).

ولما كانت حياة أمه مريم وولادته - عليه السلام - من الأمور التى جرت على خلاف العادة المتبعة فى الحمل والولادة كان الإلمام بميلاد مريم وحياتها وميلاد عيسى - عليه السلام - يمثل مرحلة لها أثر واضح فى دعوته وموقف الناس منه ومن أمه.

ميلاد مريم ونشأتها:

كانت «حنا» زوج عمران لا تنجب، فرأت طائرا يزق وليده فاشتهت الولد، ونذرت إن وهبها الله ولدا أن تجعله من خدام بيت المقدس، وكان زوجها عمران رجلا صالحا، وكان إمام الصلاة، وقد استجاب الله دعاء زوج عمران، ووضعت طفلتها مريم، وكان من عادتهم أن لا يخدم البيت إلا الذكور، وهى تريد أن تفى بنذرها، فاتجهت إلى الله بالدعاء، وقد قص علينا القرآن الكريم مشاهد هذا الموقف وأن الله تقبل دعاء زوج عمران وتقبل مريم بقبول حسن، وجعل كفالتها

---

(1) الصف، من الآية: 5

لزوج خالتها زكريا ـ عليه السلام ـ وقد رأى زكريا من إكرام الله لها وفضله عليها أن الرزق يأتيها فى غير موعده، فيسألها عن مصدره، فيتلقى الجواب: إن الله يرزق من يشاء بغير حساب.

ونشأت مريم فى هذا الجو الطهور، وكانت الكرامة التى أكرمها الله بها دافعا لزكريا ـ عليه السلام ـ أن يدعو ربه أن يرزقه ذرية طيبة، فاستجاب الله دعاءه على الرغم من كبر سنه، وامرأته العاقر، ورزقه الله بيحيى.

ولما شبت مريم جاءتها البشرى على لسان الملائكة بأن الله اصطفاها وطهرها على نساء العالمين مشفوعة بالأمر بالقنوت والسجود والركوع.

وفى تصوير هذه الأحداث يقول القرآن الكريم: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى
نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ
إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ
أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا
حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ
هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ
قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ
يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ۖ قَالَ
كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ
ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾
يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ
إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ
يَخْتَصِمُونَ ﴾[1].

---

(١) آل عمران، الآيات: ٣٥ ـ ٤٤

ميلاد عيسى عليه السلام:

كانت مريم الطهور البتول مستغرقة فى عبادتها ونسكها، وإذا بها تفاجأ بالملائكة تخبرها أن الله يبشرها بولد، فاستبد بها العجب والدهشة؛ لأنها ليس لها زوج ولأنها لم يمسها بشر، فكان الجواب أن هذه إرادة الله، وقد خلقها من قبل، وإذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون، وتقبلت إرادة الله بالرضا والقبول، إلا أنها لما حانت لحظة الوضع استشعرت اللحظات الحرجة التى ستواجه فيها الناس، وماذا ستقول لهم؟ وهم يقيسون الأمور بالمقاييس البشرية؟ حتى إنها تمنت أن تكون قد ماتت قبل أن تتعرض لمثل هذا الموقف العصيب، وقد تحقق ما توقعته من اتهامها وهى المطهرة المصطفاة، والقرآن الكريم يقص علينا تطور هذه اللحظات الحرجة فى موضعين: الموضع الأول سورة آل عمران، حيث يقول الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٤٥ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٤٦ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٧ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٤٨ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾(١).

والموضع الثانى الذى حدثنا القرآن الكريم فيه عن حمل مريم وولادتها جاء فى سورة مريم، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۝١٦ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝١٧ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝١٨ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝١٩ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝٢٠ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝٢١ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ۝٢٢ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ

---

(١) آل عمران، الآيات: ٤٥ ـ ٤٩

ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى
قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾
فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ
أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا
فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ
قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾(1).

وإذا أحببنا أن نتعرف على مافى هذين النصين من مناهج فإننا نقول: إنها مناهج ربانية؛ لأن مصدرها الكتاب، وهو كلام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والمناهج الربانية تتميز بأنها معصومة من الخطأ، وأنها أصل لغيرها من المناهج، وأما أسلوبها فهو أسلوب القصص المثير للتفكير والتأمل وأخذ العبرة.

حديث عيسى فى المهد:

رأينا كيف أشارت أصابع الاتهام إلى مريم، وكيف توجه إليها قومها بالإساءة والتوبيخ؛ لأنها ـ فى زعمهم ـ لم تحافظ على سمعة أبيها النقية، ولا مسلك أمها العفيفة الطاهرة، وبئس ما قالوا!! وكان لابد أن يكون هناك دليل خارق للعادة ليبرىء مريم من هذا الاتهام الظالم، وساق الله ـ جلت قدرته ـ هذا الدليل ليخرس ألسنة هؤلاء المتقولين عليها، فأنطق طفلها الوليد وهو لايزال فى المهد. وكان هذا أمرا معجزا آخر ساقه الله ليبرىء ساحتها، ويشير إلى ما أعده من النعمة والكرامة والنبوة لهذا الوليد الذى جاء على غير الطريق المعهود، وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى
عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ

(1) مريم، الآيات: ١٦ ـ ٢٩

وَٱلزَّكَوٰةِ مَادُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[1].

ومن الواضح من نص الآيات الكريمات أن عيسى ـ عليه السلام ـ تكلم وهو فى المهد، يعنى لم يزل رضيعا بعد؛ ولكننا نلحظ أن الآيات الكريمات تنص على أن عيسى ـ عليه السلام ـ قال: ﴿ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾ ومن المعلوم لدى علماء الأديان أن عيسى لم ينبأ قبل أن تبلغ سنه الثلاثين، فكيف عبر القرآن عن إيتائه الكتاب وجعله نبيا بالفعل الماضى الذى يفيد حصول الحدث قبل الحديث عنه؟

ولدفع هذه الملاحظة نقول: إن التعبير عن الأحداث المستقبلة بالفعل الماضى يشير إلى أن هذه الأحداث ستقع حتما؛ لأنها خبر من الله العلى القدير، وقد جرى القرآن فى كثير من الإخبار عن المستقبل على هذا المنهج نفسه، وقد وقفنا على ما حدث به القرآن عن ميلاد عيسى ـ عليه السلام ـ والظروف التى أحاطت به والخوارق التى صاحبته، وإذا أردنا أن نتعرف على ما جاء فى بعض الأناجيل التى تتفق فى كثير مما جاءت به مع ما جاء فى القرآن الكريم فإننا نتصفح الإنجيل المنسوب إلى برنابا، وكان يكتب ما يقوله له عيسى ـ عليه السلام ـ وللأسف فإن الكنيسة قد أصدرت أمرا يُحَرِّمُ على المسيحيين قراءة إنجيل برنابا هذا، وفى هذا الإنجيل: الفصل الأول الذى جعل عنوانه «بشرى الملاك جبريل للعذراء مريم بولادة المسيح» نقرأ النص التالى:

١ ـ لقد بعث الله فى هذه الأيام الأخيرة بالملاك جبريل إلى عذراء تدعى مريم من نسل داود من سبط يهوذا.

٢ ـ بينما كانت هذه العذراء العائشة بكل طهر بدون أدنى ذنب، المنزهة عن اللوم، المثابرة على الصلاة مع الصوم يوما وحدها، وإذا بالملاك جبريل قد دخل مخدعها وسلم عليها قائلا: «ليكن الله معك يا مريم».

---

(١) مريم، الآيات: ٣٠ ـ ٣٧

٣ ـ فارتاعت العذراء من ظهور الملاك.

٤ ـ ولكن الملاك سكن روعها قائلا: لا تخافى يا مريم لأنك قد نلت نعمة من لدن الله الذى اختارك لتكونى أمَّ نبى يبعثه إلى شعب إسرائيل؛ ليسلكوا فى شرائعه بإخلاص.

٥ ـ فأجابت العذراء: وكيف ألد بنين وأنا لا أعرف رجلا؟.

٦ ـ فأجاب الملاك: يا مريم إن الله الذى صنع الإنسان من غير إنسان لقادر أن يخلق فيه إنسانا من غير إنسان، لأنه لا محال عنده.

٧ ـ فأجابت مريم: إنى لعالمة أن الله قدير فلتكن مشيئته.

٨ ـ فقال الملاك: كونى حاملا بالنبى الذى ستدعينه يسوع.

٩ ـ فامنعيه الخمر والمسكر وكل لحم نجس؛ لأن الطفل قدوس الله.

١٠ ـ فانحنت مريم بضعة قائلة: هأنذا أمة الله، فليكن بحسب كلمتك.

١١ ـ فانصرف الملاك.

١٢ ـ أما العذراء فمجدت الله قائلة.

١٣ ـ اعرفى يا نفس عظمة الله.

١٤ ـ وافخرى يا روحى بالله مخلصى.

١٥ ـ لأنه رمق ضعة أمته.

١٦ ـ وستدعونى سائر الأمم مباركة.

١٧ ـ لأن القدير صيرنى عظيمة.

١٨ ـ فليتبارك اسمه القدوس؛ لأن رحمته تمتد من جيل إلى جيل للذين يتقونه.

١٩ ـ ولقد جعل يده قوية فبدد المتكبر المعجب بنفسه.

٢٠ ـ ولقد أنزل الأعزاء من عن كراسيهم ورفع المتَّضعينَ.

٢١ ـ أشبع الجائع بالطيبات، وصرف الغنى صفر اليدين.

٢٢ ـ لأنه يذكر الوعود التى وعد بها إبراهيم وبنيه إلى الأبد[١].

فهذا النص من إنجيل برنابا يتحدث عن اصطفاء مريم وحملها بعيسى ـ عليه

(١) إنجيل برنابا ـ الفصل الأول ص١٤ نشر دار الوثائق بالكويت.

السلام ـ بما يتفق مع ما قرره القرآن الكريم، وإن كان القرآن الكريم قد أعطانا تفاصيل مثيرة عن الأحداث والمشاعر التى اعتلج بها فؤاد مريم، والظروف البيئية التى صاحبت ميلاد نبى الله عيسى ـ عليه السلام ـ واتهام قومها لها، وإظهار الله براءتها على لسان وليدها الذى تكلم وهو لما يزل فى المهد صبيا.

ولعلنا نتساءل: من هو برنابا الذى ننقل عن إنجيله هذا الفصل؟ وما الفرق بينه وبين الأناجيل الأخرى التى بأيدى النصارى فى أيامنا هذه؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات نقول: إن برنابا أحد الحواريين الاثنى عشر الذين اختارهم عيسى كما جاء فى الفصل الرابع عشر من إنجيل برنابا، وأنه كتب هذا الإنجيل لينبه على الضلال الذى وقع فيه الكثيرون بعد عيسى، ومنهم بولس، حيث قالوا: إن المسيح ابن الله، ورفضوا الختان الذى أمر الله به دائما وجوزوا أكل اللحم النجس، ويتميز إنجيل برنابا عن غيره من الأناجيل بأنه ينص على أن عيسى ـ عليه السلام ـ رسول ونبى، وأن الذبيح هو إسماعيل ـ عليه السلام ـ وليس إسحاق، وأن فيه البشارة بمجىء محمد ﷺ.

نبوة المسيح عليه السلام:

لم يحدثنا القرآن الكريم عن الأحداث التى جرت بعد ميلاد عيسى وكلامه فى المهد إلى أن جاءته النبوة، وإن كانت بعض الكتب قد تناولت هذه الفترة، وسنعتمد فى المعلومات التى تتعلق بالمرحلة السابقة على النبوة إلى أن جاءته النبوة على ما جاء فى إنجيل برنابا حيث يقول: إن عيسى ـ عليه السلام ـ ذهب مع أمه ويوسف النجار إلى مصر هربا من هيردوس الذى أراد قتله، ثم عاد لما بلغ سن السابعة، وأخذ منذ ذلك الحين يحاج علماء اليهود فى أمر الناموس، ونال إعجاب من سمعه حتى كانوا يتساءلون: كيف أوتى مثل هذا العلم وهو حدث لم يتعلم القراءة؟!

إلى أن بلغ سن الثلاثين جاءه جبريل وهو على جبل الزيتون، وأعطاه كتابا، وعرف عيسى بعد ذلك أنه نبى مرسل(١).

(١) راجع إنجيل برنابا ـ الفصل الثامن والتاسع والعاشر ص١٨، ١٩، ٢٠

وفى رسالة عيسى ونبوته يقول القرآن الكريم: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾(١).

ومن هذا النص القرآنى الكريم نعرف أن عيسى أرسل إلى بنى إسرائيل، وأنه بشر برسول الله ﷺ.

ويقول مشيرا إلى نزول الإنجيل على عيسى ـ عليه السلام ـ: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(٢).

وقد واجه عيسى إنكارا واعتراضات من اليهود الذين كذبوه وأخذوا يؤلبون عليه الحاكم الرومانى، وقد أيد الله عيسى ـ عليه السلام ـ بعدد من المعجزات فى مواجهة هذا الإنكار اليهودى، وهذه المعجزات هى: خلق الطير من الطين، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، وإنباؤهم بما يأكلون وما يدخرون فى بيوتهم. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه المعجزات فى قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾(٣).

ومن معجزاته أيضا إنزال المائدة حينما طلب إليه الحواريون أن يسأل الله أن ينزل عليهم مائدة من السماء تكون لهم عيدا، وقد ساق القرآن الكريم أمر هذه المائدة فى مجال تعداد نعم الله على عيسى ـ عليه السلام ـ وعلى أمه فى سورة

(١) الصف، الآية: ٦

(٢) المائدة، الآية: ٤٦

(٣) آل عمران، الآيتان: ٤٨، ٤٩

المائدة، يقول الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(١).

وشاية اليهود بعيسى ومحاولة قتله:

شعر الكهنة وأرباب الهيكل من اليهود أن بقاء عيسى خطر عليهم وإيذان بانتهاء سلطانهم؛ لأنه سيكشف للشعب خداعهم وكذبهم، فأخذوا يُعملون الحيلة للتخلص منه، ووشوا به إلى ملك الرومان مُدَّعِينَ أنه يزعم أنه ملك إسرائيل، وفى هذا خطر شديد على ملك الرومان، واستطاعوا أن يعقدوا اتفاقا مع يهوذا الإسخريوطى الخائن ليدل رجال الرومان على عيسى ليقتلوه نظير ثلاثين قطعة من الذهب، وفى الفصل الرابع عشر بعد المائتين إلى الفصل الحادى والعشرين بعد المائتين من إنجيل برنابا تفصيل للأحداث التى وقعت من خيانة يهوذا الإسخريوطى واتفاقه مع الكهنة نظير ثلاثين قطعة من الذهب وذهابه مع جند الرومان إلى حيث كان عيسى - عليه السلام - مع أصحابه، ولكن الله رفع عيسى

---

(١) المائدة، الآيات: ١١٠ - ١١٥

إليه وألقى شبهه على يهوذا الإسخريوطى الذى أخذه الجند وصلبوه، وفى الفصول المذكورة تفصيل لما قاله يهوذا وما رد عليه جند الرومان، وما جاء فى هذه الفصول يتفق فى مجمله مع قول الله تعالى: ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾(1).

فالله قد نجى نبيه عيسى ورفعه إليه، ورأى جمهور أهل السنة أنه رفع حيا وأنه سيعود إلى الأرض فى آخر الزمان.

الدعوة إلى التوحيد:

دعا عيسى ـ عليه السلام ـ كما دعا الأنبياء جميعا إلى توحيد الله بالعبادة، والتأكيد على إفراد الله وحده بالألوهية، وقد أكد القرآن الكريم فى كثير من آياته على دعوة عيسى إلى التوحيد؛ نظرا لأن الكثيرين ممن يدعون الانتساب إلى عيسى ـ عليه السلام ـ قد ضلوا الطريق، واتخذوا عيسى إلها أو ابن الإله أو ثالث ثلاثة، وقد فند القرآن الكريم هذه الدعاوى الباطلة فى كثير من آياته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾(2).

وقد أشار القرآن الكريم إلى الكفر الذى وقع فيه النصارى بادعائهم أن عيسى ابن الله أو أن الله ثالث ثلاثة، فقال سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ

(1) النساء، الآيات: ١٥٦ ـ ١٥٨

(2) الزخرف، الآيتان: ٦٣، ٦٤

مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(١).

ويؤكد القرآن على دعوة عيسى إلى التوحيد وتبرئته مما نسب إليه، وذلك فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾(٢).

المناهج والأساليب التى استخدمت فى عرض دعوة عيسى عليه السلام:

حينما نمعن النظر فى الآيات الكريمة التى تناولت قصة عيسى ـ عليه السلام ـ وأمه الصديقة مريم ابنة عمران نجد أن أكثر من منهج ومن أسلوب استعمل فى عرض أحداث هذه القصة.

١ ـ ففى الآيات التى تعرض نذر أم مريم وكفالة زكريا لها بعد ميلادها ونشأتها صوامة قوامة نجد المنهج العاطفى هو الذى عبر عن نذر أم مريم، ونجد الأسلوب المستعمل هو أسلوب التحدث بالنعم التى أنعم الله بها على أهل هذا البيت الكريم.

٢ ـ ونجد المنهج الحسى سائدا فى تعبير القرآن الكريم عن المعجزات التى أنعم الله بها على نبيه عيسى ـ عليه السلام ـ من خلق الطير من الطين بإذن الله، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وإنزال المائدة، وكذلك كلام عيسى وهو فى المهد صبيا.

---

(١) المائدة: ٧٢، ٧٣

(٢) المائدة: ١١٦، ١١٧

ويبدو المنهج الحسى واضحا كذلك فى ظروف حمل مريم وولادتها، حيث يقول الحق - سبحانه وتعالى -: ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝٢٥ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ﴾(1).

وفى الرزق الذى كان زكريا - عليه السلام - يجده عند مريم فى المحراب: ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(2)

❁❁❁

(1) سورة مريم، الآيتان: ٢٥، ٢٦

(2) سورة آل عمران، الآية: ٣٧

الدروس المستفادة من دعوات أولى العزم من الرسل

رسل الله - صلى الله عليهم وسلم - جاءوا جميعا لتصحيح العقائد، وإحقاق الحق، وإزالة العدوان، وتصحيح الأوضاع الجائرة، ونصرة الضعفاء، وتثبيت كرامة الإنسان. ويمكن أن نلخص الدروس المستفادة من دعواتهم - عليهم السلام - فيما يلى:

١ - الدعوة إلى التوحيد وبيان بطلان الشرك.

٢ - الاستمرار والدأب فى محاولة إقناع المعاندين وإظهار خطأ ما هم عليه من التوجه بالعبادة لغير الله تعالى.

٣ - التدرج فى استعمال الأساليب الدعوية: من التلطف فى إظهار الخطأ السائد، ثم كشف مظاهر هذا الخطأ، ثم محاولة بعث التفكير الحر لدى المدعوين للتحرر من ربقة تقليد الآباء والأجداد، ثم الانتقال إلى اتخاذ وسائل أكثر وضوحا، ثم تعرية المعاندين بالمنطق السليم، وبالكشف عن انحراف تفكيرهم، ثم تحدى المعاندين بعد ذلك إذا ما أصروا على كفرهم.

٤ - التحلى بالصبر فى مواجهة إيذاء المخالفين وسخريتهم.

٥ - الاستعداد للابتلاء والتعرض للإيذاء والتغرب أو القتل.

٦ - بذل التضحيات مهما بلغت جسامتها فى سبيل العقيدة التى آمنوا بها ودعوا إليها.

٧ ـ البحث عن وسائل جديدة تأخذ بيد الدعوة نحو هدفها المنشود.

٨ ـ الثقة فى وعد الله والتأكد من حسن العاقبة.

٩ ـ عدم السماح للعلاقات الأسرية بالتأثير فى سير الدعوة، أو التطلع إلى مساواة المسىء بالمحسن.

١٠ ـ مواجهة الانحراف فى السلوك والمعاملات بحزم وعزم، والدليل على ذلك موقف إبراهيم ـ عليه السلام ـ من أبيه، وقومه، والذى آتاه الله الملك.

١١ ـ الهجرة إلى مناطق أخرى تكون أكثر استعدادا لتقبل الدعوة.

١٢ ـ الإخلاص الذى لا تشوبه شائبة فى تحقيق ما دعوا إليه وآمنوا به.

والواجب على الدعاة أن يأخذوا أنفسهم بهذه الدروس ويتعلموا منها كيف يواجهون الأحداث، ويردون على المخالفين ردا فيه إقناع ووضوح حتى يأخذوا بأيديهم إلى السلامة والنجاة.

❁❁❁

مراحل الرسالة الخاتمة فى العهد المكى

تمهيد:

يستوقف الباحث فى حياة رسول الله ﷺ أمور غير مألوفة صاحبت نشأته ﷺ وتربيته، فقد ولد يتيما، لم يكن هناك أب يهتم بتربيته، ويورثه ويعلمه ما يحب من مثل وقيم وأخلاق، ولم تعش أمه طويلا حتى ترعاه وتأخذ بيده، وتسدد خطاه، ولكن الله أراد لها أن ترحل عن دنياه وهو فى سن السادسة، وقام جده بكفالته حتى توفى، وهو فى سن الثامنة، فتولى أمره عمه أبو طالب، وعلى الرغم من هذه التطورات التى تترك أثرها فى نفوس الناشئة إلا أن رسول الله ﷺ قد بهر الناس من حوله ومن جاءوا بعده بما تميز به من أخلاق سامية، وسلوك نقى، ومعرفة واعية؛ لأن الله قد تولى تربيته ورعايته وتوجيهه، ولذلك جاء عن رسول الله ﷺ قوله: «**أدبنى ربى فأحسن تأديبى**» وقد قال ابن إسحاق عن نشأة رسول الله ﷺ: «**فشب رسول الله ﷺ يكلؤه الله ويحفظه، ويحوطه من أقذار الجاهلية، لما يريد من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقا، وأكرمهم حسبا، وأحسنهم جوارا، وأعظمهم حلما، وأصدقهم حديثا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال، تنزها وتكرما**»(١).

وكان مسلك النبى ﷺ فى حياته، وطريقة تعامله مع الآخرين، ونظرته المسماح إلى الأشياء والناس، وإنسانيته السامية التى لفتت انتباه الناس إليها فى

(١) راجع السيرة النبوية لابن كثير، ج١ ص٢٥٠

الإقامة والسفر، واستقامته صبيا وشابا وكهلا، واكتمال مروءته، وعظم أمانته، وصدق حديثه، ومعاونته المحتاجين، وإكرام الضيف، وحمله الضعيف، وتقديمه العطاء الجزيل للمعدم الفقير، وأخذه لصاحب الحق بحقه، وعفة لسانه، وصفاء سريرته، وإجلاله وهيبته، كل ذلك جعل أهل مكة ينظرون إليه نظرة الإكبار والإجلال، والثقة والتقدير والاحترام، حتى ولو اختلفوا معه فى العقيدة وفارقهم فى الدين، فإن ما عرف عنه من أخلاق عالية، ورجولة كاملة، وأمانة نادرة لا يتطرق إلى شىء منها شك أو ارتياب.

ما سبق وأكثر منه كان بمثابة الوسائل التى هيأ الله بها نبيه ﷺ ليحمل الرسالة التى أعده لها وخلقه من أجلها: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾(1). وزاد ذلك وضوحا وتأكيدا لدى الباحثين فى سيرته ما تناقله الناس عن أحداث عجيبة جرت له فى حياته صبيا وشابا وكهلا، وما تتابعت به الأخبار من تطلع أهل الكتاب وذوى العلم والباحثين عن الحق إلى مقدم النبى الخاتم وقرب زمانه، وتتابع البشائر بقرب ظهوره.

وقد استفاضت الأخبار أن النبى ﷺ لم يكن يرضى عن عبادة الأوثان السائدة فى مكة، وأنه لم يسجد لصنم قط، ولم يحمل لها أى احترام أو تبجيل، فطرة ركزها الله فيه منذ نعومة أظفاره، حتى بحيرا لما قال له - وهو غلام فى سن الثانية عشرة - :يا غلام: أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتنى عما أسألك عنه.

فكان جوابه - صلوات الله وسلامه عليه - :**«لا تسألنى باللات والعزى شيئا، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما»**.

فقال له بحيرا: فبالله إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه.

فقال له: **سلنى عما بدا لك**(2).

---

(1) سورة الأنعام، من الآية: ١٢٤

(2) راجع السيرة النبوية لابن كثير، ج١ ص٢٤٥ تحقيق مصطفى عبد الواحد. وسيرة ابن هشام ج١ ص٢٠٦

التمهيد للنبوة:

مرت دعوة النبى ﷺ بعدة مراحل، تتميز كل مرحلة بطابع خاص تنفرد به عما سواها، وتجعلها بمثابة الإعداد والتمهيد للمرحلة التالية، وكانت الفترة التى بدأت منذ ولادته ﷺ إلى أن بلغ سن الأربعين يمكن أن نُسميها فترة الإعداد للنبوة، وقد مر بنا بعض أحداثها ودلالاتها التى صاحبت حياة النبى ﷺ منذ بدأ يفكر فيما حوله مما ألفه الناس من سلوك وتصرفات ينفر منها العقل السليم، وتأباها الفطرة الصحيحة.

ولكن العلامة المميزة لهذه الفترة بدأت فى السنوات السابقة على البعثة؛ حيث تعود النبى ﷺ أن يذهب إلى غار حراء مدة شهر كل عام كان يتزود فيه، ويقضى الليل والنهار مفكرا متأملا فى ملكوت السموات والأرض، متطلعا إلى أن يهديه الله إلى دين إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقد كان عُزوفه عما انهمكت فيه قريش من لهو ومجون وخمر، ونفوره من هذا اللون اللاهى العابث الغافل من الحياة، داعيا للآخرين أن ينظروا إليه نظرة تقدير وإعجاب زادها إكبارا وإجلالا ما عرف عنه من مكارم الأخلاق، واستقامة السلوك، والترفع عن السفاسف، حتى أطلقوا عليه لقب (**الأمين**) وكان رسول الله ﷺ يرجو أن يوفقه الله لدين إبراهيم، وكان تحنثه فى الغار وتعبده فيه وانقطاعه للتأمل والتفكير الليالى ذوات العدد طوال السنوات السابقة للبعثة خاتمة مطاف هذه المرحلة التى انتهت فى سن الأربعين، وبدأت مرحلة النبوة التى بدأت طلائعها فى غار حراء لما جاءه الملك وأمره بالقراءة وأخبره أنه رسول الله، على النحو الذى سنتناوله بالتفصيل فى المرحلة التالية[1].

مرحلة النبوة:

بدأت مرحلة النبوة بمجىء الملك إلى النبى ﷺ فى غار حراء، وهو فى سن الأربعين، وطلبه منه أن يقرأ، كما حدثت بذلك كتب السنن، ونزول قوله

(١) راجع مسار الدعوة فى العهد المكى، الطبعة الثانية ص١٣١، ١٣٢

تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(١). وإخبار جبريل رسول الله ﷺ أنه رسول الله، وتكرار مجيء الملك إلى رسول الله ﷺ ليتأكد أنه ملك من عند إلله جاءه بالرسالة؛ وكانت هذه المرحلة فى حياة رسول الله ﷺ تتميز بالإعداد الروحى والنفسى للنبى ﷺ والاستعداد لتحمل المسئولية العظمى، ونزل الوحى يؤكد لرسول الله ﷺ هذه الحقيقة: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ۝٧ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾(٢).

ولم يكن رسول الله ﷺ قد أمر بأن يبلغ، واستمرت هذه المرحلة ثلاث سنوات، كانت الدعوة فيها سرا حديثا مع الأقارب والأصدقاء، فأسلم فى هذه الفترة خديجة، وعلى، وزيد، وأبو بكر - رضى الله عنهم - وأسلم آخرون بدعوة أبى بكر - رضى الله عنه - .

وظل الأمر كذلك حتى نزل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾(٣). عندئذ أدرك رسول الله ﷺ أن مرحلة جديدة قد بدأت، وهى الجهر بالدعوة.

الجهر بالدعوة:

أخذ رسول الله ﷺ يدعو من يتحدث إليه، ومن يلقاه، وكانت الدعوة الفردية هى المظهر العام الذى غلب على الدعوة بعد ما نزلت آيات سورة المدثر على رسول الله ﷺ إلى أن نزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ۝٢١٦

---

(١) الآيات الأولى من سورة العلق، من ١ - ٥

(٢) الآيات الأولى من سورة المزمل، من ١ - ٨

(٣) الآيات الأولى من سورة المدثر، من ١ - ٧

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾[1]. عندئذ صنع رسول الله ﷺ طعاما، ودعا إليه بنى هاشم، وأخذ يعرض عليهم ما جاء به من عند الله، فتصدى له عمه أبو لهب، وحال بينه وبين ما يريد أن يقول، فكرر الدعوة مرة أخرى، وعرض على بنى هاشم دعوته، وطلب إليهم أن يتابعوه على ما جاء به من عند الله تعالى.

ثم نزل قول الله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2]. فصعد رسول الله ﷺ الصفا وأخذ ينادى بطون قريش كل بطن باسمه حتى اجتمعوا له، وكان من لم يستطع أن يحضر أرسل من يأتيه بالخبر؛ لأن رسول الله ﷺ كان عندهم موضع الثقة والتقدير، فإذا كان على الصفا ينادى فمعنى ذلك أن هناك أمرا خطيرا جعله يطلق هذا النداء، وما أن اجتمعوا حتى بادرهم بسؤال يقول: **أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً بِالوادى تُرِيدُ أَنْ تُغير عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِىَّ؟ فَأَجَابُوا جَمِيعاً فى إقرارٍ علنى جماعى:** نعم ما جربنا عليك كذبا. ونلفت النظر هنا أن رسول الله ﷺ أراد أن يأخذ منهم إقرارا علنيا جماعيا بصدقه وأمانته، وهذا ما كان؛ لأن ما سيخبرهم به لم يكن أمرا مألوفا لديهم.

فتابع رسول الله ﷺ حديثه إليهم بعد أن تلقى منهم ذلك الإقرار العلنى فقال: **«إنَّ الرائد لا يَكْذِبُ أَهْلَهُ، وَوالله لَوْ كَذَبْتُ النَّاسَ جَمِيعًا مَا كَذَبْتُكُمْ، إنِّى نَذير لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَاب شَدِيد. يا بنى عَبْد مَنَاف، يا بنى زُهْرَةَ، يابنى عَبْد المُطَّلب، وَأخذَ يعدد أفخاذ قريش فخذا فخذا، ثم قال: إنَّ الله أَمَرنى أَنْ أُنْذر عَشيرتى الأَقْرَبينَ، وَإنَّنى لا أَمْلكُ لَكُمْ منَ الدُّنْيا مَنْفَعةً، ولاَ منَ الآخرة نَصيباً إلاَّ أَنْ تَقُولوا: لا إِلَه إلاَّ الله»** ولكن أبا لهب تصدى له قائلا: تبا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟[3].

وبهذا الموقف انطلقت الدعوة من الفترة السرية والاعتماد على الاتصال

(١) الشعراء، الآيات: ٢١٤ ـ ٢١٧
(٢) الحجر، الآية: ٩٥
(٣) نهاية الأرب، ج١٦ ص١٩٧

الفردى بين الأصدقاء والأقارب إلى الجهر بالدعوة والإعلان عنها صراحة بلا مواربة.

واتخذت وسيلة جديدة من وسائل الدعوة، تلك هى الخطابة والحديث العام على ملأ من الناس، مع اتخاذ أسلوب الموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب، الترغيب فى النجاة والفوز بالجنة لمن أطاع وآمن، والترهيب من سوء العاقبة لمن كذب وكفر.

واعتمدت الدعوة أيضا على المنهج العاطفى الذى كشف فيه رسول الله ﷺ عن حرصه عليهم وخوفه على أن يحل بهم سوء العاقبة كما حلت بالذين كذبوا الرسل من قبل.

ولئن كانت قريش لم تتنبه للدعوة وصاحبها قبل هذا الإعلان فإنها قد انتقلت بعد ذلك إلى مرحلة جديدة لنا أن نسميها **مرحلة المواجهة**، تراوحت من الحوار إلى التهديد.

مرحلة المواجهة:

مرت هذه المرحلة بعدة أدوار: دور التهكم، ودور الحوار، ودور الإغراء ودور التحدى، ودور التهديد، ودور المؤامرة على حياة صاحب الدعوة.

المساومة: أخذ أمر الدعوة يجرى على كل لسان فى مكة بعد الإعلان الذى سبق، وأخذ الإسلام يطرق كل بيت من بيوت مكة، مما جعل زعماء قريش يستشعرون الخطر على مكانتهم، فاتجه أربعة منهم إلى رسول الله ﷺ يعرضون عليه أن يشتركوا فى العبادة، بمعنى أن يعبدوا الله وأن يعبد رسول الله آلهتهم، وكان مما قالوه فى ذلك: «يا محمد: هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد، ونشترك نحن وأنت فى أمرنا كله، فإن كان الذى جئت به خيرا مما بأيدينا كنا قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذى بأيدينا خيرا مما بيديك كنت قد شركتنا فى أمرنا، وأخذت بحظك منه»[1]. فنزل قول الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا

(١) راجع النكت والعيون، للماوردى، ج٦ ص٣٥٧

﴿ ... ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴾[1].

ومضى رسول الله ﷺ يدعو إلى ربه، وكل يوم يمضى يكسب الإسلام أنصارا جددا، ودائرة أوسع، وزاد قلق أهل مكة، وأصبح أمر الإسلام الشغل الشاغل لهم فى مجالسهم.

التهكم:

ويبدو من تتابع الأحداث أن ذلك حدث بعد أمور وقعت واستشعرت قريش الخطر من انتشار الدعوة، وازدياد أنصارها، وكان قد جرى بين رسول الله ﷺ وبين أهل مكة كلام تطاولوا فيه على رسول الله ﷺ وعلى ربه، فأخذ يسفه أحلامهم، ويعيب آلهتهم، واشتدّ الأمر عليهم، ولم يكن لهم شأن يشغلهم إلا التفكير فى مواجهة الدعوة؛ حتى اجتمعوا يوما وقال بعضهم لبعض: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط، سفّه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسبّ آلهتنا، وصرنا منه على أمر عظيم[2].

وفيما هم يتداولون فى أمرهم وماذا يصنعون إذ أقبل رسول الله ﷺ فاستلم الركن، ثم طاف بالبيت، فآذوه ببعض الكلام، فعرف ذلك فى وجهه، وكلما حاذاهم غمزوه بما يسىء من القول، وفى المرة الثالثة وقف رسول الله ﷺ وقال: **«أتسمعون يا معشر قريش؟ أما والذى نفسى بيده لقد جئتكم بالذبح»**.

وكأنما نزلت كلماته عليهم نزول الصاعقة، وسادهم وجوم كأنما على رءوسهم الطير، وانقلب الوضع حتى إن أكثرهم تحريضا عليه أخذ يترضاه، ويقول: انصرف يا أبا القاسم راشدا؛ فما كنت بجهول[3].

ولما انصرف رسول الله ﷺ أخذ يلوم بعضهم بعضا، ويعيب كل منهم على

(١) سورة الكافرون.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير، ج١ ص٤٧١ تحقيق مصطفى عبد الواحد

(٣) راجع سيرة ابن هشام، ج١ ص٢٩٠ تحقيق مصطفى السقا وغيره، والسيرة النبوية لابن كثير، ج١ ص٤٧١

الآخر تخاذله أمام وعيد رسول الله لهم، وأخذ يغرى بعضهم بعضا بالشر، فلما التقوا برسول الله ﷺ اجتمعوا عليه، وأخذوا يقولون له: أنت الذى تقول كذا وكذا؟ يقصدون عيب آلهتهم. وهو يواجههم ويقول: نعم أنا الذى أقول ذلك. حتى إن أحدهم أخذ بمجامع ردائه ﷺ حتى قام أبو بكر دونه وهو يبكى لما نزل برسول الله ﷺ ويقول: أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله؟!.

وتتابع أذاهم لرسول الله ولمن آمن، حتى إن أبا جهل ذات يوم لقيه ﷺ وسبّه سبّا قبيحا، ولم يرد عليه، ورأت ذلك المشهد جارية من أهل مكة؛ ثم لم تلبث أن رأت حمزة عم النبى عائدا من صيده، فأخبرته بما رأت، فما كان من حمزة إلا أن اتجه إلى مجلس قريش حول الكعبة وعمد إلى أبى جهل فضربه بقوسه ضربة أصابته إصابة بليغة قائلا: أتشتمه وأنا على دينه، أقول ما يقول؟! فرد ذلك على إن استطعت. فتهيأ رجال من بنى مخزوم لينتصروا لأبى جهل، فقال لهم: دعوا أبا عمارة فإنى والله قد سببت ابن أخيه سبّا قبيحا، وذلك أن أبا جهل أدرك أن الأمر سيتسع وأن انتصار بنى مخزوم له سيدفع بنى هاشم والمنافية أن ينتصروا لحمزة، وبذلك يكون قد ساعد على إيجاد أنصار جدد لرسول الله ﷺ وهذا مالا يريده ولا يحب أن يكون.

ولم يمض هذا الحادث بدون نتائج، فقد أدركت قريش أن تماديها فى إساءتها سيكون له رد فعل غير سار بالنسبة لهم، وأن عليهم أن يحاولوا البحث عن أسلوب آخر قد يكون أجدى عليهم مما سلكوه حتى الآن، فقد أدركوا يقينا أن العنف والأذى لا يؤديان إلى ما يريدون، وقد كان أحدث نتائج هذا النهج غير السديد إسلام حمزة، وهو من هو فتوة وعزة بين رجالات قريش، عند ذلك فكروا فى أسلوب الإغراء بالمال والجاه والسلطان، وذلك أنهم كانوا فى مجتمع تغلب عليه المادة، ويظنون أن من يقوم بعمل ما إنما يريد أن يجنى من ورائه مالا أو ملكا أو سلطانا، ومن أجل ذلك حاولوا أن يغروا رسول الله ﷺ بهذه الأشياء التى يلهث وراءها عباد المادة الغافلون عن القيم العليا التى دعا إليها الأنبياء.

فبينما كان عتبة بن ربيعة جالسا فى نادى قومه، وكان سيدا فيهم، وكان رسول الله ﷺ جالسا وحده فى المسجد إذ عرض عتبة على قريش أن يقوم إلى رسول الله يعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها، ويكف عما يدعو إليه، فوافقوه على اقتراحه، فذهب إليه، وقال: يا ابن أخى: إنك منا حيث قد علمت من السطة (الشرف) فى العشيرة، والمكان فى النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع.

قال: يا ابن أخى: إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سوَّدناك علينا، حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطبّ وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه؛ فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه. ورسول الله ﷺ منصت له حتى انتهى، فقال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع منى. قال: أفعل.

وأخذ رسول الله ﷺ يقرأ عليه سورة فصلت: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ ﴿١﴾
تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾
بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا
إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ
مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ
﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ
وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا

أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾[1].

وتقول إحدى الروايات: إن رسول الله ﷺ حينما وصل إلى هذه الآية اضطرب عتبة ووضع يده على فم رسول الله ﷺ وناشده الرحم إلا توقف.

وتقول رواية أخرى: إنه استمر يقرأ حتى وصل إلى آية السجدة فسجد، ثم قال: أسمعت يا أبا الوليد؟ قال: سمعت. قال: فأنت وذاك[2].

وكان رد الفعل واضحا على ملامح وجه عتبة حتى قال أصحابه بعضهم لبعض لما رأوا من سمات التغير على وجهه، وهو فى طريقه إليهم: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به. فلما جلس إليهم سألوه: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائى أنى سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش: أطيعونى واجعلوها بى، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به[3].

غير أن هذا الصوت العاقل لم يجد استجابة، فردوا عليه ردا فيه استخفاف برأيه وعدم ثقة فيه، فقالوا: «سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه» وإزاء هذا الرفض منهم لما أشار به قال: «هذا رأيى فيه، فاصنعوا ما بدا لكم».

وإزاء هذا الموقف من تلك المرحلة نرى أن الإغراء بالجاه والمال والسلطان من جانب قريش كان الوسيلة التى ظنوا بها أنهم يوقفون مسيرة الدعوة، وأن عتبة

(١) سورة فصلت الآيات: ١ ـ ١٣ على الرواية الأولى ٣٧ على الثانية.
(٢) سيرة ابن هشام ج١ ص٢٩٣، ٢٩٤ راجع السيرة النبوية لابن كثير، ج١، ص٥٠٢
(٣) سيرة ابن هشام ج١ ص٢٩٤

استعمل من جانبه المنهج العاطفى فى محاولة منه لاستمالة رسول الله ﷺ حين بدأ حديثه إليه بقوله: «يا ابن أخى» معبرا عن شرفه بينهم فى قوله: «إنك منا حيث قد علمت من السطة فى العشيرة، والشرف فى النسب».

وحينما نصغى متأملين إلى رد رسول الله ﷺ بقراءته صدر سورة فصلت نجد أن الآيات الكريمات قد اشتملت على المنهج العاطفى فى مطلعها، وأسلوب الموعظة الحسنة فى شكلى الترغيب والترهيب، ثم انتقلت الآيات إلى المنهج العقلى حينما وجهت إلى آثار القدرة الباهرة فى خلق السموات والأرض وما فيهما ممزوجا ذلك أيضا بالمنهج العاطفى والمنهج الحسى مما يدفع من له عقل أن يستجيب، وهذا ما كان من عتبة لولا أن الشقاء غلب عليه، فسار فى طريق الضلالة مسايرة لقومه.

المزج بين الإغراء والتهديد:

ولئن كان الموقف السابق من تلك المرحلة كان يتسم بالحوار الهادىء وعدم التحدى من جانب ممثل قريش فإن المواقف التالية قد حاولت التأثير من جانب التخويف والتهديد لمن يقف مؤازرا لرسول الله ﷺ كما صنع زعماء قريش حينما ذهبوا إلى أبى طالب، ولكننا سنتخطى هذا الموقف، ونعرض لموقف أكثر دلالة على العناد من جانب قريش، والإصرار على الكفر، ويتمثل ذلك الموقف فى ذهاب جماعة من زعمائهم إلى رسول الله ﷺ يحاورونه ويعرضون عليه ما سبق عرضه من عتبة، ثم يعقبون على ذلك ـ بعدما رأوا أن الإغراء لا يجدى ـ بالتحدى ومحاولة التعجيز الممزوج بالإصرار على الكفر والعناد مما ستتضح معالمه من خلال عرض الحوار الذى دار بينهم وبين رسول الله ﷺ ذلك أن أربعة عشر من زعمائهم اجتمعوا حول الكعبة، ودار الحديث بينهم حول رسول الله وما يدعو إليه، وموقفهم منه، واستقر رأيهم على أن يبعثوا إليه من يدعوه ليتحدثوا معه، وفيما يلى ما أورده ابن هشام حول هذا المجلس وما دار فيه: «.. ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه. فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد

اجتمعوا لك ليكلموك فأتهم. فجاءهم رسول الله ﷺ سريعا، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بداء، وكان عليهم حريصا، يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم (مشقتهم) حتى جلس إليهم، فقالوا له: يامحمد: إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فما بقى أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك - أو كما قالوا - فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا، فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكا ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجنّ رئيا - فربما كان ذلك بذلنا لك أموالنا فى طلب الطب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك.

فقال لهم رسول الله ﷺ: **«ما بى مَا تَقُولُونَ، مَا جِئْتُ بِمَا جِئْتُكُمْ به أَطْلُبُ أَمْوالَكُمْ، ولا الشَّرف فِيكُمْ، وَلا المُلْكَ عَلَيْكُم، ولَكَنَّ الله بَعَثنى إِلَيْكُم رَسُولا، وأَنْزَل عَلَىَّ كِتَاباً، وَأَمرنى أَنْ أَكُونَ لَكُمْ بَشيراً وَنَذيراً، فَبَلَّغْتكُمْ رِسَالَات رَبّى، وَنَصَحْتُ لَكُمْ، فإِنْ تَقْبلُوا منى مَا جِئْتكُمْ به فَهُو حَظُّكُمْ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرة، وإِنْ تَرُدّوهُ عَلَىَّ أَصْبر لأمر الله حَتَّى يَحكُمَ الله بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ»**(1).

وهنا انتهى الجزء الأول من الحوار، وفيه عرضوا الأسباب التى دعتهم إلى حوار رسول الله ﷺ وقدموا المقترحات التى يظنون أنها قد تكون الدافع وراء ما جاءهم به، ونلحظ أنها تتفق مع ما عرضه من قبل أبو الوليد، وأنها تنبعث من تفكير مادى نفعى بحت، وأن رسول الله ﷺ رد عليهم مبينا بوضوح أن ليس هناك شىء مما ظنوه له دخل فيما جاء به، وأن ما جاء به إنما هو رسالة من الله يبغى من ورائها هدايتهم، وجلب الخير لهم، ونجاتهم مما يحل بالمكذبين من العقاب والعذاب، فإن استجابوا فذلك هو الخير لهم، وإن أعرضوا صبر عليهم.

وهنا نلحظ أيضا أن الحوار لم يكن فيه منهم خشونة ولا هجوم، وأن رسول

(1) سيرة ابن هشام، ج1 ص295، 296

الله ﷺ قد رد عليهم ردا مقنعا، مظهرا لهم حرصه على نجاتهم وجلب الخير لهم. وكذلك نلحظ امتزاج المنهج العقلى بالمنهج العاطفى فى رد رسول الله ﷺ عليهم، والتأكيد الواضح أن ليس هناك هدف دنيوى مما جرى فى أذهانهم له أدنى تأثير فيما جاءهم به. وكان المنتظر بعد هذا الرد من رسول الله عليهم أن يسألوه عن معالم هذه الدعوة التى جاء بها، وعن مظاهر الخطأ فى عقائدهم ومنهج حياتهم، ولكن شيئا من ذلك لم يكن؛ لأنهم لم يكونوا يريدون من وراء هذا الحوار الوصول إلى الحق، وإنما كان هدفهم أن يوقفوا الدعوة عن بلوغ غاياتها، ويصرفوا صاحبها عن المضى فيها، وقد ظنوا أن التلويح بالإغراء المادى والسلطان والسيادة قد يكون موصلا لهم إلى أغراضهم، فلما سمعوا الإجابة الواضحة وأن شيئا مما جرى فى أذهانهم ليس له أدنى تأثير انتقلوا إلى التحدى، مما يكشف عن عدم انتفاعهم بما سمعوا من رسول الله ﷺ ويدل على عنادهم وإصرارهم على كفرهم، وأن الوصول إلى الحق لا يعنيهم فى قليل أو كثير، فأخذوا يعرضون أمورا تدل على فقدانهم لتوازنهم.

التحدى:

عندئذ قالوا: «يامحمد: إن كنت غير قابل منا شيئا مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلدا، ولا أقل ماء، ولا أشد عيشا منا، فسل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به، فليسير عنا هذه الجبال التى قد ضيقت علينا، وليبسط لنا بلادنا، وليفجر لنا فيها أنهارا كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصى بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول: أحق هو أم باطل؟ فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك، وعرفنا به منزلتك من الله، وأنه بعثك رسولا كما تقول.

فقال لهم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ: **«مَا بهذا بُعثت إِلَيْكُمْ، إِنَّما جئْتكُمْ منَ الله بمَا بَعَثَنى به، وَقَدْ بلَّغْتكُمْ مَا أُرْسلتُ به إِلَيْكُمْ، فَإِنْ تَقْبلُوهُ فَهوَ حَظُّكُمْ فى الدُّنيا والآخرة، وإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَىَّ أَصْبرْ لأمرِ الله تَعَالى، حَتَّى يَحْكُمَ الله بَيْنى وبَيْنَكُمْ»**

قالوا: فإذا لم تفعل هذا لنا، فخذ لنفسك، سل ربك أن يبعث معك ملكا يصدقك بما تقول، ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جنانا وقصورا وكنوزا من ذهب وفضة يغنيك به عما نراك تبتغى، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه؛ حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم.

فقال لهم رسول الله ﷺ : **«ما أَنَا بِفَاعِل، وَمَا أَنَا بِالَّذِى يَسْأَلُ رَبَّهُ هَذَا، وَمَا بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ بِهَذَا، وَلَكِنَّ الله بَعَثَنِى بَشِيراً وَنَذِيراً - أو كما قال - فَإِن تَقْبَلُواْ ما جِئْتكُم بِه فَهُوَ حَظُّكُمْ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَة، وَإِنْ تَرِدُّوهُ عَلَىَّ أَصبِر لأَمْرِ الله حَتَّى يَحْكُمَ الله بَينِى وَبَيْنَكُمْ»**.

قالوا: فأسقط السماء علينا كسفا كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل.

فقال رسول الله ﷺ: **«ذَلِكَ إِلَى الله، إِنْ شَاءَ أَنْ يَفْعَلَهُ بِكُمْ فَعَلَ»** .

قالوا: يا محمد: أفما علم ربك أنا سنجلس معك، ونسألك عما سألناك عنه، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك، فيعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع فى ذلك بنا، إذا لم نقبل منك ما جئتنا به؟ إنه قد بلغنا أنك إنما يعلمك هذا رجل من أهل اليمامة يقال له: الرحمن، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبدا، فقد أعذرنا إليك يا محمد، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا[1] . . . إلخ ما قالوا.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الحوار وما اتسم به القرشيون من عنت واستفزاز فى سورتين من سوره، جاء فى سورة الإسراء قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ

(١) راجع سيرة ابن هشام ج١ ص٢٩٦، ٢٩٧.

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾[1].

وجاء في سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾[2].

❁❁❁

(١) الإسراء، الآيات: ٩٠ ـ ٩٣

(٢) الفرقان: ٧ ـ ١١

وسائل قريش فى الصدّ عن الدعوة

وقد اتخذت المواجهة بين رسول الله ﷺ وبين أهل مكة أشكالا شتى لا يمكن أن نستوعبها هنا، ولكننا سنشير إلى ما يتحمله هذا البحث مما يشير إلى أبرز وسائلهم التى استعملوها لإيقاف الدعوة وصرف صاحبها عنها، ومن ذلك أنهم فكروا فى أن يحدثوا الناس بأمور ظنوا أنهم يصرفونهم بها عن الاستماع إلى رسول الله ﷺ وكان صاحب هذا الاتجاه النضر بن الحارث، حيث قال: يا معشر قريش: إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد، قد كان محمد فيكم غلاما حدثا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به قلتم: ساحر، لا والله ماهو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم، وقلتم: كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم، وسمعنا سجعهم، وقلتم: شاعر، لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها: هزجه ورجزه، وقلتم: مجنون، لا والله ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون، فما هو بخنقه ولا وسوسته، ولا تخليطه، يا معشر قريش: فانظروا فى شأنكم، فإنه والله قد نزل بكم أمر عظيم[1].

وكان النضر من أكثر الناس عداوة لرسول الله ﷺ، فكان يتتبع المجالس التى يجلس فيها رسول الله ﷺ ليذكر الناس بالله، ويحذرهم أن يصيبهم مثل ما أصاب الأمم السابقة الذين كذبوا رسلهم، كان النضر يجلس إليهم بعد ذلك ويحدثهم بأخبار ملوك الفرس، ويقول: أنا أحدثكم أحسن من حديث محمد ﷺ محاولا أن يصرفهم عن الاستماع لرسول الله ﷺ وهو الذى نزل فيه قوله

(١) راجع سيرة ابن هشام، ج١ ص٢٩٥ وما بعدها.

تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[1].

ويبدو جليا من حديث النضر أن صدق رسول الله وأمانته وما تحلَّى به من أخلاق عالية لم تكن محل نزاع، وإنما كان الدافع وراء هذا الموقف العدائى هو الحسد والتنافس الأسرى، وأن ما عرف عن رسول الله ﷺ كان يمثل أسلوب القدوة الحسنة، فيسارع الذين لم يفسد الحسد فطرهم إلى الاستجابة له واتباع ما جاء به.

ولم تتوقف قريش عن البحث عن وسائل أخرى يصرفون بها الناس عن اتباع رسول الله ﷺ والاستماع إليه، فكانوا إذا جاء موسم الحج كونوا جماعات منهم تطوف على مضارب القبائل وتحذرهم من رسول الله، وجماعات أخرى تراقب تنقلاته بين القبائل، فكلما جلس إلى قبيلة من القبائل جلسوا إليها بعده وأخذوا يحذرونهم منه، ويقولون: نحن أهله وأعلم به منكم. وتتبعوا من يؤمن به بالإيذاء والعدوان والاضطهاد مما فاضت بأخباره كتب السير، وذهبوا إلى عمه أبى طالب يطلبون منه أن يجعله يكف عن دعوته، ويعرضون عليه أن يعطوه شابا من قريش ويسلمه إليهم، وأخيرا هددوه وأعلنوه بمحاربتهم له، حتى إن أبا طالب استدعى رسول الله وطلب إليه أن يتوقف؛ لأنه لا طاقة له بعداوة قريش، ولكن رسول الله يجيبه فى حزم ووضوح قائلا: **«والله يَا عَمُّ لَوْ وَضَعُوا الشَّمسَ فى يَمينى وَالقَمَرَ فى يَسَارى عَلَى أَنْ أَترُكَ هَذَا الأَمْر مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ الله أَوْ أَهْلَكَ دُونَه»** بعد أن دمعت عيناه، ويؤخذ عمه بما رأى من تصميمه وعزمه ويقينه وصدقه فيقول له: اذهب يا ابن أخى فافعل ما شئت، فوالله لن أسلمك لهم أبدا.

❁❁❁

---

(١) لقمان، الآية: ٦

الهجرة إلى الحبشة ودوافعها ونتائجها

وتشدد قريش من إيذائها واضطهادها لمن يدخل الإسلام، وتذيقهم العذاب الشديد، ويتجهون إلى رسول الله يسألونه أن يدعو الله ليخفف عنهم، ويشير عليهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى الحبشة قائلا: «**إنَّ بِهَا مَلِكاً لاَ يُظْلَمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ**» ويتجه المسلمون إلى الحبشة فرارا بدينهم، وكان في طليعتهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ وابن عمه جعفر بن أبى طالب. ويجد المسلمون مأمنا فى جوار النجاشى ملك الحبشة، ولكن قريشا لم تكد تشعر بذلك حتى بدأت تفكر فى طريقة تعيد بها هؤلاء ليكونوا تحت سمعها وبصرها تعذبهم وتضطهدهم؛ حتى يكونوا عبرة لغيرهم، فتبعث بوفد إلى النجاشى محمل بالهدايا له ولرجاله مزودين بتوجيهات أن يعملوا على إعادة المهاجرين من غير أن يتمكنوا من عرض قضيتهم على الملك، ولكن الملك يأبى أن يستجيب لذلك، ويصر على أن يسمع منهم، فيقول له جعفر ـ ردا على تساؤله: ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا فى دينى ولا فى دين أحد من هذه الملل؟

ـ أيها الملك: كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتى الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسىء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئا، وأمرنا

بالصلاة والزكاة والصيام. فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ماجاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا، وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك، ورغبنا أن لا نظلم عندك أيها الملك.

فسأل النجاشى: هل معك مما جاء به عن الله شىء؟

قال جعفر: نعم

فقال النجاشى: فاقرأه على.

فقرأ عليه أول سورة مريم، فلم يكد يسمعها حتى بكى وسالت دموعه على لحيته، وبكى أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم.

ثم علق النجاشى على ما سمع قائلا: إن هذا والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة[1].

ثم اتجه بالحديث إلى وفد قريش الذى كان يتألف من رجلين هما عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبى ربيعة قائلا: انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما.

ومما عرضه جعفر على النجاشى يتبين ما جاء به الإسلام من تصحيح العقيدة وإقامة العلاقات الإنسانية على أساس من العدل والرحمة، ودعوة الإسلام إلى السمو الخلقى، والسلوك المستقيم.

❁❁❁

(١) راجع سيرة ابن هشام، جـ١ ص٣٣٥، ٣٣٦.

المقاطعة ثم بيعة العقبة والهجرة

وتتابع قريش حربها للدعوة وصاحبها، فتكتب صحيفة تعلقها فى الكعبة تعلن فيها مقاطعة رسول الله ومن يناصره اقتصاديا واجتماعيا لمدة ثلاثة أعوام، حتى أكلوا ورق الشجر، إلى أن أذن الله فانهارت المقاطعة، ورسول الله ماض فى دعوته لا يصرفه عنها صارف من إيذاء أو اضطهاد أو مصادرة، إلى أن هيأ الله جماعات من أهل يثرب التقى بهم فى مواسم الحج أكثر من مرة، وتوجت هذه اللقاءات ببيعة العقبة الأخيرة التى فتحت الطريق أمام المسلمين إلى أن يجدوا ملاذا آمنا يعبدون الله فيه من غير اضطهاد ولا مصادرة، والتى كانت مقدمة لهجرة المسلمين إلى المدينة، وهجرة رسول الله إليها بعد ذلك.

وقد جُن جنون قريش لما علمت بهذه البيعة وأدركت مدى الخطر الذى يتهددها إذا استطاع المسلمون أن يجدوا لهم ملاذا هناك، وإذا انتقل النبى إليهم؛ لذلك أخذوا يفكرون فى وسائل أخرى، فعقدوا اجتماعا على جانب كبير من الأهمية فى ناد لهم يعرف بدار الندوة، وتداولوا فيه الرأى: ماذا يصنعون مع رسول الله حتى يقضوا على هذه الدعوة التى هزت مجتمعهم هزا عنيفا؟! واجتمع رأيهم على قتله على يد مجموعة منهم تمثل كل بطون قريش؛ حتى يشعر بنو هاشم أنهم لا طاقة لهم بحرب قريش كلها، فيرضوا بالدية.

ولكن الله يخبر نبيه بما بيته كفار قريش، ويأمره بالهجرة فيخرج عليهم وهم واقفون أمام بابه ينتظرون خروجه لينفذوا مؤامرتهم، ويغشى الله أبصارهم فلا يبصرون، ويخرج رسول الله ﷺ وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ

أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾[1].

ومن متابعة هذه المواجهات يتبين لنا مدى ما تحمله رسول الله ﷺ من مصاعب، ومدى ما تعرض له من مضايقات، وما اعترضه من عقبات تغلب عليها بالصبر والتحمل والسعى الحثيث فى تبليغ دعوته، وضرب المثل بالقدوة الحسنة فى التعالى عن الصغائر والحرص على مكارم الأخلاق، والرغبة الشديدة فى جلب الخير لمن يدعوهم، ومقابلة إساءتهم بالإحسان، حتى إنه كان يحزنه عدم هدايتهم كما عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله سبحانه: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[2]. ويتبين الإصرار على الوصول بالدعوة إلى غاياتها من ردوده على ما تعرضه قريش عليه من إغراء، وعلى عمه حين قال له: **«والله يَا عَمُّ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فى يَمينى وَالقَمَرَ فى يَسَارى عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ ما تركته حَتَّى يُظْهِرَهُ الله أَوْ أَهْلِكَ دُونَهُ»**.

وهنا يتعلم الدعاة من منهج رسول الله ﷺ كيف يواجهون الصعاب، وكيف يعتصمون بالصبر، وكيف يتابعون دعوتهم حتى يحقق الله أهدافهم.

❁❁❁

(١) يس، الآيتان: ٨ ، ٩
(٢) الكهف: ٦

مراحل الدعوة فى العهد المدنى

فى الطريق إلى المدينة جرت أحداث جسام بدا فيها جليا حفظ الله سبحانه لنبيه ﷺ وعنايته به، إلى جانب نماذج الصدق والوفاء التى بدت ممن صاحب رسول الله ﷺ فى رحلة الهجرة وبخاصة موقف الصديق وإعداده للرحلة بإحكام وتضحية بالغين، فبعد أن أعد الراحلتين والدليل الذى سيصحبهما فى هذا السفر الشاق، لم يكد يصل بهم السرى إلى غار ثور حتى نزل أبو بكر إلى الغار أولا ليتأكد خلوه من أى شىء يؤذى، فسدّ كل ما فيه من جحور خشية أن يخرج منها شىء يسبب أذى لرسول الله ﷺ وبقى شقان فأدخل فيهما رجله، وبينما هما بالغار إذ لدغ أبو بكر من الجحر الذى وضع رجله فيه ولكنه تماسك خشية أن يتنبه رسول الله ﷺ وسقطت دموعه على وجه رسول الله ﷺ فتنبه رسول الله ﷺ ولما عرف الأمر تفل على موضع اللدغ فذهب ما به من ألم.(1) ولما وصل رجال قريش إلى فم الغار اشتد الخوف بأبى بكر فطمأنه النبى ﷺ قائلا: يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟! وكان أبو بكر قد عبر عن تخوفه بقوله: «لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لرآنا» وإلى هذا الموقف يشير القرآن الكريم فى سورة التوبة ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(2).

(1) راجع الرياض النضرة، ج1 ص104

(2) التوبة: 40

والجنود التى أشارت إليها الآية الكريمة هى أن الله سبحانه أرسل عنكبوتا فنسجت خيوطها على فم الغار، وأرسل يمامة فوضعت بيضها على نسيج العنكبوت.

وكان أبو بكر أثناء الطريق أحيانا يتقدم على رسول الله ﷺ، وأحيانا يتأخر وأحيانا يكون عن يمين وأحيانا عن شمال، فلما سئل عن ذلك أجاب: كنت إذا تذكرت المهاجم تقدمت، وإذا تذكرت المتابع تأخرت، وإذا تذكرت الآتى من اليمين أو من الشمال انتقلت إلى اليمين أو الشمال؛ لأتلقى بنفسى أى مفاجأة.

وفى الطريق نزلا على خيمة أم معبد، وهناك رأت من كرامة الله لنبيه أن در اللبن فى شاتها الحائل العجفاء حتى شرب النبى ﷺ ومن حضر، وأبقى الإناء ممتلئا باللبن مما أثار دهشة زوجها لما عاد فأخبرته بما رأت. وأغرت الجائزة الضخمة التى أعدتها قريش لمن يأتى برسول الله ﷺ سراقة فانطلق فى أثر الركب الكريم لكن فرسه عثرت به مرتين قبل أن يقترب من رسول الله ﷺ وفى الثالثة ساخت قوائم الفرس فى الأرض وانحدر عنها سراقة، فأدرك أن رسول الله ﷺ محفوظ من ربه، فطلب إليه أن يدعو له ووعد أن يصرف الطلب عنه، وأعطاه النبى كتابا كتبه أبو بكر جاء به بعد فتح مكة: بعد غزوة حنين.

وكانت أخبار هجرة رسول الله ﷺ قد وصلت إلى أهل المدينة فكانوا يخرجون كل صباح يرقبون قدومه حتى تلجئهم حرارة الشمس إلى الدخول فى بيوتهم، وما إن وصل حتى رأت المدينة يوما لم تر مثله فرحا وبشرا وسرورا بمقدمه ﷺ مما أفاضت كتب السير فى وصفه وحفاوتهم به صلوات الله عليه.

بناء المجتمع الجديد:

ما كاد رسول الله ﷺ يستقر به المقام فى المدينة حتى أخذ يفكر فى إقامة المجتمع الذى تكون بعد الهجرة، ولندرك أهمية هذه المرحلة فى الدعوة علينا أن نتعرف الفصائل التى يتكون منها المجتمع الذى يريد الرسول ﷺ بناءه.

يتكون المجتمع من الأنصار، ومن المهاجرين، ويعيش بجوارهم جماعات من اليهود.

أما الأنصار فهم فريقان رئيسيان: الأوس، والخزرج، وكانت الحرب بينهما قبل الإسلام لا تنتهى إلا لتبدأ من جديد ريثما يأخذ كل فريق لها عدته، حتى لقد قيل: لو لم يتدارك الإسلام الأوس والخزرج لأفنى بعضهم بعضا، ولهذا كان الإسلام إنقاذا للفريقين من الهلاك، وقد جمع الإسلام كلمتهم وألف بينهم، وقد امتن الله عليهم بما أنعم عليهم من الألفة فقال: ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾(١). وجمع قلوبهم على المودة أمر لا يقدر عليه إلا الله مقلب القلوب؛ ولذلك يقول لنبيه: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(٢). وهكذا جمع الله قلوب الأوس والخزرج، وصار ولاؤهم الأول للعقيدة التى آمنوا بها.

وأما المهاجرون فقد تركوا دورهم وأموالهم ونزلوا ضيوفا على إخوانهم من الأنصار، وشاركوهم فى بلدهم، بعد أن وحدت العقيدة بينهم، وقد آخى النبى ﷺ بين المهاجرين والأنصار فى تجربة لم يعرف التاريخ لها سابقة ولا لاحقة، وقد فتح الأنصار قلوبهم ودورهم لإخوانهم المهاجرين حتى كان الواحد منهم يعرض على أخيه أن يشاركه فى ماله عن رضا وطيب خاطر، وقد أثنى القرآن الكريم عليهم فقال: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾(٣).

وهكذا أصبح الولاء للعقيدة التى تجمع القلوب بعدما كان الاعتزاز بالانتساب للقبيلة هو التقليد السائد بين الجميع، فصرف الله عنهم ذلك وصار لسان حالهم ينشد:

أبى الإسلام لا أب لى سواه .·. إذا افتخروا ببكر أو تميم

---

(١) آل عمران: ١٠٣

(٢) الأنفال: ٦٣

(٣) الحشر: ٩

ومن قبل ذلك بنى رسول الله ﷺ المسجد ليكون مركز التجمع وتلقى تعاليم الوحى وتأصيل العلاقة بين المؤمنين وخالقهم - سبحانه وتعالى - وقد كان بناء المسجد فرصة ذهبية بدا فيها التعاون الصادق بين المسلمين من مهاجرين وأنصار.

وكان لابد لهذه الأمة الناشئة أن تقيم أساسا للعلاقة بينها وبين اليهودية التى تعيش حول المدينة، فنظم رسول الله ﷺ العلاقة بين المسلمين واليهود فى وثيقة لم يعرف التاريخ لها مثيلا من قبل، أعطى فيها لليهود حرية العقيدة وحرمة النفس والمال على أساس من التعاون بينهم وبين المسلمين، ولكن اليهود لم يراعوا ذلك ولم يحافظوا عليه.

والخلاصة أن رسول الله أقام المجتمع على أساس من العقيدة والإخاء والتعايش بين الأجناس.

❁❁❁

حماية المجتمع ورد العدوان

بعد أن أكمل النبى ﷺ تنظيم المجتمع ووضع أسسه على ضوء العقيدة التى آمن بها الجميع كان لابد لهذا المجتمع الناشىء من حماية ونظام دفاعى يرد عدوان الطامعين، ويدفع عادية المهاجمين ويخيف المتربصين المتآمرين، ونزل تشريع الجهاد للقيام بهذه المهام التى تحتاجها الدعوة لتمضى فى طريقها، وجاء الوحى يأذن للنبى ﷺ بالقتال فى قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾(١).

وقد امتدت هذه المرحلة عدة سنوات شهدت عدة غزوات وعدة سرايا، كان أبرزها غزوة بدر، وغزوة أحد، وغزوة الخندق، إلى جانب محاولات المتربصين الذين سطوا على سرح المدينة، وبعض الغدرة الذين جاءوا يطلبون من الرسول ﷺ أن يبعث معهم من يعلمهم القرآن والإسلام، فغدروا بهم، كما كان من أصحاب الرجيع وأصحاب بئر معونة، وكان أشد هذه الظروف حرجا فى غزوة الخندق، لما جاءت قريش وغطفان لحصار المدينة، وغدرت بنو قريظة وانضموا إليهم، مما جعل المسلمين يواجهون أعداء من جهات متعددة، وقد صور القرآن الكريم هذه الظروف العصيبة فى سورة الأحزاب حيث يقول الله تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ

(١) الحج، الآيتان: ٣٩، ٤٠

وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾(1).

وقد واجه النبى ﷺ والمسلمون هذه الفترة بعزم ثابت ويقين لا يتزعزع فى نصر الله سبحانه، وتضحية بالنفس والمال لم يعرف التاريخ لها مثيلا، وحسبك أن تسمع لسعد بن معاذ ـ رضى الله عنه ـ وهو يبدى لرسول الله ﷺ استعداد الأنصار حين يقول: يا رسول الله: لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فاظعن حيث شئت، وصل حبل من شئت، واقطع حبل من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، وأعطنا ما شئت، وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبع لأمرك، فوالله لو سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك، ووالله لئن استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لَصُبُرٌ فى الحرب، صدق فى اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله (2).

وقد شهدت هذه المرحلة من بطولات المسلمين وتفانيهم فى سبيل عقيدتهم ما صار مضرب الأمثال فى كل العصور.

وقد تميزت هذه المرحلة باستعمال عدة وسائل أبرزها وسيلة الجهاد، وكان أسلوب القوة هو الأسلوب الأمثل فى مواجهة العدوان والمؤامرات، وعرف المسلمون وسائل دفاع لم تكن معروفة لدى العرب من قبل، ومنها حفر الخندق الذى أشار به سلمان الفارسى.

(1) الأحزاب، الآيات: ١٠ ـ ١٣

(2) راجع سيرة ابن هشام ج٢ ص٦١٥ تحقيق الشعار وآخرين. وراجع زاد المعاد لابن قيم الجوزية ج٣ ص١٧٣ تحقيق شعيب وعبد القادر الأرنؤط.

ومنها توهين صفوف العدو ببث الفرقة بين صفوفه وزرع الشك فى نفوس جماعات المهاجمين كما صنع نعيم بن مسعود الأشجعى فى موقعة الأحزاب (الخندق) حينما جاء إلى النبى ﷺ معلنا إسلامه، ولم يعرف به أحد من قومه غطفان وحلفائهم من قريش ويهود بنى قريظة، واستطاع بما أوتيه من قدرة وحنكة أن يجعل كلا من فرقاء الأحزاب ينظر إلى الآخرين نظرة توجس وشك بخطته الذكية التى وجهه إليها النبى ﷺ لما قال له: **«إنما أنت رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت، إنما الحرب خدعة»**.

وقبل كل ذلك وبعده تدخلت عناية الله ونصره، فأرسل جنوده من الملائكة فى غزوة بدر، يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۗ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾(1).

وفى غزوة الأحزاب أرسل الريح على قريش وغطفان فكفأت قدورهم، واقتلعت خيامهم، وأصابتهم بالهلع حتى بادروا بالرحيل، وفى ذلك يقول الله ـ سبحانه ـ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾(2) حتى انصرفوا خائبين وكفى عباده المؤمنين القتال بما أرسل من جنوده المرئية مثل الرياح والتى لم تر مثل الخوف والفزع والرعب الذى زرعه فى قلوب بنى قريظة، وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ

---

(1) آل عمران، الآيات: ١٢٣ ـ ١٢٦

(2) الأحزاب، الآية: ٩

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾(١).

وهكذا آذنت هذه المرحلة بالانتهاء بعدما مكن الله لنبيه ﷺ ورد أعداءه على أعقابهم خائبين، بعدما كانت أحلامهم فى النصر والقضاء على الدعوة تراودهم فردوا خائبين كما قال الله سبحانه.

ولذلك قال النبى ﷺ: **«لا يغْزُونَنَا بَعْدَ هذَا»**.

وجاءت بعد ذلك المرحلة الثالثة التى يمثلها صلح الحديبية، وما أعقبها من نتائج تصورها الصفحات التالية.

❁❁❁

(١) الأحزاب، الآيات: ٢٥ ـ ٢٧

صلح الحديبية

يمثل صلح الحديبية مرحلة جديدة من مراحل الدعوة؛ إذ كانت نهاية لفترة المواجهة التى كان الاهتمام فيها موجها إلى حماية الدعوة ورد العدوان، وكانت بداية لفتح الطريق أمام القبائل لتتعرف على الإسلام عن كثب، والانتقال بالدعوة إلى مرحلة العالمية التى تعتبر إحدى نتائج هذا الصلح.

وكان ذلك فى شهر ذى القعدة من السنة السادسة من الهجرة، لما توجه النبى ﷺ ومن صحبه من المسلمين قاصدين العمرة، ولكن قريشا تصدت لهم وأبت عليهم أن يدخلوا مكة؛ خشية أن يظن العرب أنهم دخلوها عنوة، ولما كان النبى ﷺ حريصا على عدم إراقة الدماء فقد سلك كل السبل التى تؤكد لقريش أنه إنما جاء لزيارة البيت، ولا يريد حربا، ولا يحق لقريش أن تصد أحدا عن زيارة البيت، وعلى الرغم من أنه أكد ذلك لكل من جاء من قريش يتعرف ما عند رسول الله ﷺ فقد أرسل عثمان بن عفان إلى مكة يخبرهم أنه لا يريد إلا زيارة البيت، وانتهى تردد الرسل بين قريش ورسول الله ﷺ إلى عقد صلح ينص على عدة بنود، كان من أهمها:

١ ـ أن تضع الحرب أوزارها بين الفريقين عشر سنوات يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض.

٢ ـ وأن من أحب أن يدخل فى عهد محمد وعقده فعل، ومن أحب أن يدخل فى عهد قريش وعقدها فعل.

٣ ـ وأن من جاء المدينة من غير إذن أهله من قريش أعيد إليها، ومن أتى قريشا من عند رسول الله لا ترده.

٤ ـ وأن يعود النبى ﷺ وأصحابه عامه هذا ثم يرجع فى العام القابل، يقيم ثلاثا، وليس معهم إلا سلاح المسافر.

ولم يتقبل المسلمون هذه النتائج بالرضا، بل كانوا غاضبين منها، وجرت بينهم تساؤلات وبين رسول الله ﷺ تعبر عن عدم رضاهم، لكن رسول الله ﷺ كشف لهم عن الحكمة فى قبوله هذه الشروط التى رأوها غير عادلة، ورأى فيها نتائج طيبة مما ستكشف الأحداث عنها فيما بعد.

نتائج صلح الحديبية:

فما هى النتائج التى أسفر عنها هذا الصلح؟:

أولاها: أن قريشا اعترفت لأول مرة بوجود قوة مستقلة فى جزيرة العرب هى قوة المسلمين، وسلمت بحق أى قبيلة أن تختار الانضمام إلى رسول الله ﷺ، وترتب على ذلك أن أعلنت خزاعة دخولها فى عهد رسول الله ﷺ.

ثانيتها: أن الناس أخذوا يتلاقون ويتحدث بعضهم إلى بعض بناء على أمر الصلح الذى أبرم، وكان من نتائج ذلك أن دخل فى الإسلام فى مدة عامين أكثر ممن دخل فيه من قبل، وهذه نتيجة إيجابية لم يكن المسلمون يدركون فائدتها الدعوية.

ثالثتها: أنا أبا بصير جاء المدينة مسلما، ثم رد حسب الاتفاق، واستطاع أن يتخلص ممن جاءوا يعيدونه، واتخذ له مركزا على ساحل البحر، وتجمع فيه كل من كان على شاكلته، حتى كونوا قوة تعترض تجارة قريش وتصيبها بالقلق، حتى اضطرت إلى أن تطلب إلى رسول الله ﷺ أن يستبقى عنده من يأتيه من أهل مكة.

رابعتها: أن أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط لما هاجرت إلى المدينة جاء أخواها يطلبان ردها، فأخبرهما رسول الله ﷺ أن الشرط خاص بالرجال ولا ينطبق على

النساء، ونزل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾(١).

خامستها: أن الله سمى صلح الحديبية فتحا مبينا وأنزل على رسوله ﷺ سورة الفتح، وقال عنها الرسول ﷺ: «**إن الله أنزل عليّ سورة هى أحب إلى مما طلعت عليه الشمس**».

سادستها: أن هذا الصلح فتح الطريق لتطبيق عالمية الدعوة حيث بعث رسول الله ﷺ بكتبه إلى حكام العالم يدعوهم إلى الإسلام.

سابعتها: أنه كان تمهيدا لفتح مكة حيث نقضت قريش العهد بمساعدتها بنى بكر على خزاعة حلفاء رسول الله ﷺ فكان ذلك سببا مباشرا لفتح مكة فى السنة الثامنة من الهجرة.

وهكذا نرى أن الدعوة قد استفادت من هذا الصلح فوائد متعددة عبرت عنها النتائج التى رصدناها.

وعلى ضوء ما تقدم يمكن أن يقال إن الرسول ﷺ استعمل وسائل جديدة اقتضتها الظروف التى واجهته.

١ ـ منها التفاوض والحوار رغبة فى إبلاغ الخصوم أنه لا يريد حربا ولا مواجهة وإنما يريد زيارة البيت.

٢ ـ ومنها عقد المعاهدات مع المخالفين مادام ذلك فى صالح الدعوة، وقد رأينا الثمار الإيجابية التى تكشفت عنها هذه المعاهدة.

❁❁❁

(١) الممتحنة، من الآية: ١٠

عالمية الدعوة

بعد أن تم صلح الحديبية بدأت مرحلة جديدة من مراحل الدعوة، تلك هى مرحلة العالمية، ذلك أن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ قد أمن بمقتضى بنود الصلح من مهاجمة قريش للمدينة؛ ولذلك بدأ يعد كتبه ويبعث رسله إلى حكام العالم يدعوهم إلى الإسلام، فأرسل إلى قيصر وكسرى والنجاشى والمقوقس حاكم مصر، والحارث بن أبى شمر الغسانى ملك البلقاء، وهوذة بن على الحنفى ملك اليمامة، والمنذر بن ساوى ملك البحرين.

وكان ذلك على الأرجح فى المحرم من السنة السابعة من الهجرة، وقد يتساءل البعض: هل عالمية الدعوة لم تقرر إلا فى ذلك التاريخ؟ أم أنها كانت سابقة عليه؟

وللإجابة عن هذا التساؤل نقول: إن عالمية الدعوة أمر مقرر منذ بداية الدعوة فى العهد المكى، والدليل على ذلك ما جاء فى السور المكية من آيات تفيد أن عالمية الدعوة أمر مقرر منذ البداية، وفى ذلك يقول الله تعالى فى سورة الأعراف: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾(1). ويقول ـ جل شأنه ـ فى سورة الأنبياء: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾(2). وجميعها من السور المكية.

---

(1) الأعراف: ١٥٨

(2) الأنبياء: ١٠٧

غير أن الظروف لم تكن مواتية فى مكة لبدء عالمية الدعوة حيث كان رسول الله ﷺ مشغولا بدعوة أهل مكة، وكذلك فى السنوات الست التى تلت الهجرة كان مشغولا بتأمين المدينة والدفاع عنها ضد المهاجمين والمتآمرين والمتربصين، إلى أن وقع صلح الحديبية، واتفق على أن تضع الحرب أوزارها عشر سنوات، عندئذ بدأ التطبيق العملى لعالمية الدعوة، وانطلق الرسل يحملون كتب رسول الله ﷺ إلى حكام العالم، وقد عرضنا نصوص الكتب ومعها دراسة مستفيضة لما يؤخذ منها وأهدافها فى كتابنا «وسائل الدعوة» فلا داعى لتكرارها هنا، وحسبنا أن نشير إلى الأهداف الدعوية لهذه الكتب وسواها، فقد كتب رسول الله ﷺ أكثر من مائة كتاب إلى رؤساء الجاليات والقبائل، وبعض الجماعات الأخرى فى وسط الجزيرة وأطرافها ومن حولها نوجز أهدافها فيما يلى:

أولا: أنها كانت تطبيقا عمليا لعالمية الدعوة.

ثانيا: أنها كانت فرصة للرسل الذين بعث بهم رسول الله ﷺ إلى الملوك والرؤساء كى يشرحوا مبادىء الإسلام ويقوموا بأمر الدعوة من خلال الحوار الذى دار بين هؤلاء الرسل وبين هرقل والمقوقس والنجاشى وملكى عمان.

ثالثا: أن ملوك أهل الكتاب خارج الجزيرة كان عندهم من العلم الذى توارثوه عن أسلافهم ما عرفوا بواسطته أن هناك نبيا سيبعث، وأنهم كانوا ينتظرون خروجه.

رابعا: كانت الكتب فى بعض حالاتها تقدم للرسل الخطوط العملية التى يسلكونها حينما يباشرون أمر الدعوة، كما يؤخذ من توجيهات النبى ﷺ لرسوله الذى بعث به إلى بنى عبد كلال(١).

خامسا: أنها رسمت للقبائل الطريقة الجديدة المستمدة من مبادىء الإسلام، والقائمة على احترام حقوق الآخرين والانتظام فى سلك اجتماعى جديد، أساسه العقيدة، لا التعصب للقبيلة.

---

(١) راجع طبقات ابن سعد، جـ١ ص٢٨٢، وكذلك وسائل الدعوة، ص١٧٤

سادسا: أنها كانت وسيلة لإعادة بعض الخارجين على المجتمعات العربية؛ ليكونوا عناصر استقرار ومشاركة إيجابية فى الحياة على أساس من مبادىء الإسلام، بعد أن أزال الإسلام الأسباب التى دعتهم إلى الخروج، كما جاء فى كتاب النبى ﷺ إلى العتقاء(١).

سابعا: أنها وضعت الأساس للتعامل مع الجاليات غير المسلمة التى تعيش فى داخل المجتمع المسلم(٢).

وهكذا قامت الحياة فى المجتمعات التى آمنت بالإسلام على أسس جديدة، قوامها استقامة العقيدة وإخلاص العبادة وطهارة الأخلاق ونظافة السلوك، واحترام الحقوق، والاعتزاز بالأخوة الإسلامية، وعدم التعصب للقبيلة الذى كان يحكم حياتهم قبل الإسلام، سواء كانوا على حق أو على باطل، فإن ذلك كان لا يعنيهم - آنذاك - وإنما يعنيهم الانتصار للقبيلة كما قال قائلهم:

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم　　طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم　　فى النائبات على ما قال برهانا

هذا الاتجاه الجائر قد توارى، وحل محله منطق يمثل قول القائل:

أبى الإسلام لا أب لى سواه　　إذا افتخروا ببكر أو تميم

وفى هذه المرحلة نرى أن الدعوة استعملت وسيلة جديدة لم تكن قد استعملت من قبل هى الرسائل والرسل الذين يتولون شرح مبادىء الدين وحوار المدعوين.

❁❁❁

(١) راجع طبقات ابن سعد، طبع بيروت، ج١ ص٢٧٨. وسائل الدعوة، ص١٦٧.
(٢) راجع طبقات ابن سعد، طبع بيروت، ج١ ص٢٨٧، ٢٨٨

إكمال الدين وإتمام النعمة

شهد العام الثامن للهجرة حدثا هاما كان بعيد الأثر فى حياة الدعوة، ذلك هو فتح مكة الذى كان إيذانا بانتهاء الوثنية فى جزيرة العرب، والقضاء عليها، فما كادت مكة تدخل فى حوزة الإسلام، ويكسر رسول الله ﷺ الأصنام المنصوبة فى جوف الكعبة، وينطلق صوت بلال بالأذان من فوق الكعبة حتى سارعت القبائل تعلن ولاءها، وتقدم وفودها إلى المدينة تبايع رسول الله ﷺ حتى عرف العام التاسع بعام الوفود، وهكذا ساد الإسلام أرجاء الجزيرة، وبدأت القبائل تنظم حياتها على ضوء تعاليم الإسلام، بما تتلقاه من توجيهات النبى ﷺ وتعليمه لها، وانطلق ولاته ﷺ إلى مواطن القبائل يقومون بأمور الحكم والقضاء والدعوة.

وجاء العام العاشر وقد أعلن النبى ﷺ أنه متوجه إلى الحج، وما كاد شهر ذى القعدة يهل حتى توافد إلى المدينة آلاف يصحبون النبى ﷺ فى رحلته إلى البيت الحرام؛ ليعلم الناس مناسك الحج، ويبلغ الشاهد الغائب.

وبدأ الركب منذ اللحظة الأولى التى تحرك فيها يعلن الهدف الأسمى من مقصده بالجهر بالتلبية، وانطلق أكثر من مائة ألف خلف رسول الله ﷺ يعلنون انتماءهم للإسلام وتوجههم إلى الله، ويطبقون عمليا المساواة بين البشر على اختلاف ألسنتهم وألوانهم، ويؤكدون أخوة الإسلام التى يستظلون جميعا بظلها، وخطب رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ خطبة الوداع التى لخص فيها مبادىء الإسلام.

خطبة الوداع:

«الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ به من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وأوصيكم عباد الله بتقوى الله، وأحثكم على طاعته، وأستفتح بالذى هو خير».

أما بعد، أيها الناس: اسمعوا منى أبين لكم؛ فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا، أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا، ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، إن ربا الجاهلية موضوع، وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب، وإن دماء الجاهلية موضوعة، وأول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية.

والعمد قود[1]، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر، وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس: إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه؛ ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم.

أيها الناس: إن النسىء[2] زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض، منها أربعة حرم، ثلاث متواليات وواحد فرد: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب الذى بين جمادى وشعبان، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

(١) القود: القصاص ـ يعنى أن يقتل من قتل غيره متعمدا إلا أن يعفو ولى المقتول.

(٢) النسىء: التأخير، وذلك أن العرب كانت تؤخر الأشهر الحرم عن مواعيدها إذا أرادوا حربا أو كانوا فى حرب.

أيها الناس: إن لنسائكم عليكم حقا، ولكم عليهن حق ألا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله أذن لكم أن تعضلوهن[1]، وتهجروهن فى المضاجع، وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وإنما النساء عندكم عوان، ولا يملكن لأنفسهن شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله فى النساء، واستوصوا بهن خيرا، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس:إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرىء مال أخيه إلا عن طيب نفس منه، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد. فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لم تضلوا بعده: كتاب الله، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد.

أيها الناس: إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى، ألا هل بلغت؟ اللهم اشهد، فليبلغ الشاهد منكم الغائب.

أيها الناس: إن الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث، ولا تجوز لوارث وصية، ولا تجوز وصية فى أكثر من الثلث، والولد للفراش، وللعاهر الحجر، من ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل.

والسلام عليكم ورحمة الله.

ويلاحظ أن رسول الله ﷺ انتهز فرصة هذا الجمع الحاشد من المسلمين الذى قدر له أن يجتمع بهذه الضخامة لأول مرة ليؤكد قضايا أساسية تقوم عليها أمور الناس فى معاشهم ومعادهم بعد أن ألمح إلى أن هذا اللقاء لن يتكرر.

والأمور التى أكد عليها رسول الله ﷺ هى:

---

(١) أصل العضل: هو الحبس والتضييق.

١ ـ حرمة الدماء والأموال والأعراض، وحرمة البلد الحرام، والشهر الحرام.

٢ ـ الدعوة إلى أداء الأمانات إلى أصحابها.

٣ ـ إهدار ربا الجاهلية ودماء الجاهلية ومآثرها ماعدا سدانة البيت وسقاية الحاج.

٤ ـ تأصيل القصاص فى القتل العمد والدية فى شبه العمد.

٥ ـ القضاء على الوثنية.

٦ ـ التنديد بالنسيء، وإعلان أن الزمان قد عاد إلى هيئته يوم خلق الله السموات والأرض، واستقرار الشهور اثنى عشر شهرا وتحديد الأشهر الحرم.

٧ ـ حقوق النساء وحسن معاملتهن والوصية بهن.

٨ ـ الأخوة الإسلامية وحرمة الأموال.

٩ ـ التحذير من الخلاف والدعوة إلى التمسك بكتاب الله.

١٠ ـ المساواة بين بنى البشر لا فرق بين عربى وعجمى.

١١ ـ الالتزام بأنصباء الورثة حسبما قررها القرآن الكريم.

١٢ ـ الحرص على سلامة الأنساب.

وفى يوم عرفة من العام العاشر للهجرة نزل على رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾(١) وكان هذا إيذانا بإكمال الدين وإتمام النعمة وبلوغ الرسالة غايتها، ولهذا فهم كبار الصحابة من هذه الآية قرب رحيل النبى ﷺ إلى ربه بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة.

بعد أن عرضنا بإيجاز بعض مراحل الدعوة الخاتمة نرى أن نقف وقفة أخيرة نتعرف من خلالها نظرة الإسلام العامة حينما يعالج قضية من القضايا.

ونشير إلى بعض خصائص الرسالة الخاتمة، وما تميزت به من عدل، ومساواة، وأخوة، وتكافل، وتشاور فيما يعن للناس فى حياتهم من قضايا وأحداث.

---

(١) سورة المائدة، من الآية: ٣.

منهج الإسلام فى علاج القضايا العامة

يتميز الإسلام بنظرة شمولية تستوعب كل الجوانب حينما يعالج قضية من القضايا، أو يتناول أمرا من الأمور، هذه النظرة الشمولية تأخذ فى اعتبارها الجانب الإنسانى والاجتماعى، حينما تعالج موضوعا اقتصاديا مثلا إيمانا بالأثر الفعال لأحد هذه الجوانب بعضها فى الآخر؛ لأنها تؤثر سلبا أو إيجابا فى النشاط الإنسانى، فردا أو جماعة، لهذا كانت النظرة المتوازنة الشاملة ضرورية ليتحقق للبشر أفرادا أو جماعات الاستقرار النفسى، والأمن الاجتماعى، والثقة فى المستقبل، والاطمئنان إلى الحاضر، مما يترك أثره الواضح على السلوك والأخلاق والإنتاج على السواء.

ومن أجل ذلك تواترت النصوص القرآنية والتوجيهات النبوية تدعو كل مسلم فى موقعه حاكما أو محكوما، فردا أو جماعة، عاملا أو صاحب عمل أن يتحلى بالعدل فى حكمه والإخلاص فى عمله، والاستقامة فى سلوكه، والإحساس الكامل بأنه عضو فى أسرة واحدة، يناله نصيبه مما تجنيه من خير، أو تواجه به من شر، كما يوضح ذلك قول النبى ﷺ: «**مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر**»(١).

وهذا يعنى أن مسئولية كل من أفراد المجتمع كاملة عن كل ما يقع من حوله من أحداث، ويعنى أن كل ما يراه من حوله يدعوه أن يتخذ منه موقفا محددا، ولا يكفى أن يكون بمنأى عن الخطأ بل عليه أن يتقدم بمنع الخطأ من الوقوع؛

(١) رواه مسلم، وأحمد فى مسنده، راجع شرح النووى لمسلم ج١٦ ص١٤٠ والكنز الثمين ص٥٣٣.

حتى يحمى الآخرين من آثاره الضارة، كما يصور ذلك بأساليب متعددة رسول الله ﷺ فى قوله: «مَثَلُ القَائم عَلَى حُدُود الله، وَالوَاقع فيها كَمَثَل قَوْم استهَمُوا عَلَى سَفينة، فَأَصابَ بَعْضُهم أَعْلاها، وبَعْضُهم أَسْفَلَها، فكَانَ الذين فى أَسْفَلها إذا أَرادوا أَنْ يَسْتَقُوا مَرُّوا عَلَى منْ فَوْقَهُم فَقَالُوا: لَو أَنَّا خَرَقْنَا فى نَصيبنا خَرقًا حَتَّى لا نُؤذى مَنْ فَوْقَنَا، فَلَوْ تَركُوهُم لَهَلكُوا وهَلَكُوا جَميعا، ولَوْ أَخذوا عَلَى أَيْديهمْ لَنجَوْا ونَجَوا جَميعاً، فَذَلَك مَثَلُ القَائم عَلَى حُدُود الله وَالْواقع فيهَا»(١).

وكذلك قوله ﷺ: «كُلُّكُمْ راعٍ ومَسْئُول عَنْ رعيته، فالإمَام راَع وَمَسْئُول عَنْ رَعيَّته، والَّرجُل فى أَهْله راع ومَسْئُول عَنْ رَعيَّته، والزَّوْجةُ فى بَيْت زَوْجها رَاعيَةٌ ومَسْئُولَةٌ عَنْ رَعيَّتها، وَالعَبْد فى مَالِ سَيده راَع ومَسْئُول عَنْ رَعَّيته، أَلا فَكُلكم راع ومَسْئُول عَنْ رَعيَّته»(٢).

وهذا يعنى أن الأمر فى نظر الإسلام دائر على تحقيق مصالح الناس، وجلب الخير لهم، سواء فى ذلك عقائد الإسلام وشرائعه، فالله ـ سبحانه ـ يريد أن يوفر السعادة والاطمئنان للناس على هذه الأرض، فالله يقول: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾(٣).

وحينما نتأمل فى الأوامر والنواهى التى جاءت فى القرآن والسنة نجد هذا الهدف جليا من تشريع هذه الأحكام، فحينما نهى الله عن الخمر والميسر عقب على ذلك بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾(٤).

وحينما ينهى رسول الله ﷺ عن الجمع بين المرأة وعمتها يعلل ذلك بقوله: «إِنَّكم إنْ فَعَلْتُم ذَلك قَطَعْتُمْ أَرْحَامكُمْ»(٥).

---

(١) أخرجه البخارى والترمذى، راجع الكنز الثمين ص٥٣٣.

(٢) راجع مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذرى ج٢ ص٣٢٧ تحقيق محمد ناصر الألبانى. وراجع الكنز الثمين ص٤٠٢.

(٣) البقرة: ١٨٥.

(٤) المائدة: ٩١

(٥) راجع فقه السنة، المجلد الثانى، ص٣٤٧.

من خصائص الإسلام

أ ـ العدل: أرسى الإسلام قواعد العدل بين البشر، سواء كانوا أنصارا أو مناهضين، فالعدل لابد أن يعيش فى ظله الجميع، تحقيقا لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾(١).

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾(٢). ذلك العدل المطلق الذى جعله رسول الله ﷺ علامة على كمال الإيمان، حينما دعا إلى العدل فى الرضا والغضب، والحب والبغض(٣).

ب ـ المساواة: وحقق الإسلام المساواة بين بنى الإنسان بصرف النظر عن أجناسهم وألسنتهم وألوانهم، فالمرء بأصغريه: قلبه ولسانه. والناس سواسية كأسنان المشط، ولا فضل لعربى على عجمى، ولا لعجمى على عربى، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى؛ ذلك أن الله لا يُقَوِّمُ الناس حسب صورهم وأجسامهم؛ ولكن حسب ما تنطوى عليه قلوبهم من نوازع الخير، وما يقدمون من أعمال تنفع البلاد والعباد.

فالناس جميعا أبناء لأب واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، فمجال التفاضل بينهم لا يرجع إلى انتمائهم لجنس من الأجناس، أو لشعب من الشعوب، أو لارتباطهم بمنطقة من المناطق أو بلد من البلدان، ولكن بمقدار ما انطوت عليه

---

(١) المائدة: ٨

(٢) النساء: ٥٨

(٣) خرج الحديث أبو داود، ونصه: «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان» راجع الكنز الثمين ص٥٤٣.

قلوبهم من معانى الخير، وما قدموه للإنسانية من مثل عليا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(١).

هذه المساواة التى أرسى الله قواعدها، وشرع للناس حدودها بما يتفق مع الطبيعة البشرية ويلائمها، ولذلك آتت أكلها، وسعد الناس فى ظلها، وتحقق لكل فرد ما يصبو إليه من الخير والأمن والاستقرار.

أما دعوى المساواة التى تتجاهل الطبائع البشرية، والتى اتخذتها بعض النظم شعارا لها كالماركسية، فقد أدت إلى نتائج عكسية؛ لأنها أهدرت قيمة الإنسان، وعاملته كآلة خالية من العواطف والتطلعات التى تقتضيها طبيعته التى خلقه الله عليها.

وإن شئنا دليلا على ذلك فلنقرأ معا تلك الصيحات التى انطلقت من صفوف النساء الروسيات، بعد أن عشن فى ظل هذه الأوضاع المناقضة للطبيعة البشرية أكثر من ستين عاما، فانطلقت صيحاتهن تعبر عن زيف هذه الدعوة التى عشن فى ظلالها أكثر من نصف قرن، لم يحصلن من ورائها إلا على القهر وانحراف الطبيعة الإنسانية نتيجة للضغوط التى عشن تحت وطأتها، والواقع أن هذه الصيحة واحدة من صور التعبير المختلفة التى انبعثت من أرجاء العالم الذى وقع تحت وطأة الحكم الماركسى خلال العقود الستة الماضية، والتى تمثلت فى انتفاضات الشعوب التى أوقعها سوء الحظ تحت سيطرة هذا النظام الجائر المتسلط، وليس غائبا عن أذهان العالم ما وقع فى المجر وتشيكوسلوفاكيا فى السنوات الماضية، وما كانت تغلى به بولندا، وما انتهى الأمر بعد ذلك إلا إلى انهيار هذه الخرافة التى كانت تسمى الاتحاد السوفيتى، وتخلص دول أوروبا الشرقية من ذلك الكابوس الذى جثم على صدرها عشرات السنين، مما يعد أصدق دليل على زيف الدعاوى العريضة التى ظل الماركسيون يدغدغون بها أحلام الفقراء والطبقات العاملة.

---

(١) الحجرات: ١٣

أما ما نريد أن نسجله هنا كمثل من واقع حياة المجتمعات التى ابتليت بالماركسية كدليل على فشل هذا النظام فى تحقيق المساواة؛ لأنه قام على إهدار قيمة الإنسان، ويجعل غيرنا يسلم معنا بأن النظام الأمثل لتحقيق المساواة بين البشر على اختلاف طبقاتهم وبلادهم وشعوبهم وأجناسهم هو النظام الذى جاء به الإسلام، ولا شىء سواه؛ ذلك لأنه من صنع الله الذى أتقن كل شىء خلقه.

أما الدليل الذى نسوقه، فهو صيحات عدد من النسوة الروسيات يعبرن فيها عن المعاناة والضياع والحيرة التى عشن فيها نتيجة النظام الذى فرضته عليهن الماركسية، والذى أفقدهن قيمتهن الإنسانية.

وقد نشرت جريدة الأهرام فى الثامن من ربيع الأول سنة ١٤٠٢هـ الموافق الثالث من يناير سنة ١٩٨٢م تقريرا نقلته عن مجلة الأبزرفر البريطانية تحت عنوان (تدهور أوضاع المرأة فى ظل المساواة الشكلية) وهو بحث عن حالة المرأة الروسية، مأخوذ من كتابات الروسيات أنفسهن، ويقول البحث: ظهرت ضمن جماعات المنشقين فى الاتحاد السوفيتى مؤخرا حركة نسائية منشقة بدأت فى مدينة لينتجراد، وراحت تنتشر فى مختلف أنحاء الاتحاد السوفيتى، ودول الكتلة الشيوعية.

لقد كانت منشورات ومطبوعات المنشقين السوفيت التى تصل إلى دول الغرب حتى السنوات الأخيرة لا تشير إلى حقوق المرأة فى حد ذاتها، وتركزت فقط على حقوق الإنسان بصفة عامة، وكان الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة كتاب العالم السوفيتى الشهير أندريه زخاروف «الخطر والأمل» الذى لفت الأنظار إلى الآثار الخطيرة التى ينتجها النظام السوفيتى الجائر على الصحة البدنية والعقلية للنساء، وتدهور معدل المواليد فى الاتحاد السوفيتى بسبب هذه الآثار.

وفى ديسمبر ١٩٧٩م وهو يوم الاحتفال بذكرى إعلان حقوق الإنسان ظهرت أول نشرة متخصصة فى شئون المرأة تحت عنوان «تاريخ المرأة الروسية» قامت

بتحريرها النساء المنشقات، وتضمنت مقالات، وأبحاثا، وأشعارا، وقضايا تاريخية حول مشاكل المرأة على وجه التخصيص، وكشفت النقاب عن الفارق بين صورة المرأة فى الأيديولوجية الشيوعية وبين الواقع المرير الذى تحياه النساء فى داخل الاتحاد السوفيتى.

وفى هذه النشرة: ذكرت النساء قصص الإجهاض فى مستشفيات الإجهاض التى أطلقوا عليها وصف «مفارم اللحم» كما ذكرن أيضا حكايات عن اغتصاب الأزواج المخمورين لزوجاتهم، ومعسكرات الاعتقال الصغيرة التى يعيش فيها الأطفال تحت اسم «معسكرات الطلائع» والسجن بتهمة «البطالة» و«الطفيلية» الذى توضع فيه النساء، وغير ذلك من الروايات.

وقد كان لهذه النشرة تأثير مُدَوٍّ ليس فقط داخل روسيا، وإنما أيضا فى الخارج، وبخاصة فى أوساط الحركة النسائية فى باريس، حيث ظهرت لها فورا نسخة مترجمة إلى الفرنسية، واهتمت الصحف النسائية وغير النسائية فى فرنسا بكاتبات هذه النشرة وأجرت معهن الأحاديث الصحفية المتعددة حول أوضاع النساء فى الاتحاد السوفيتى.

ورغم التشابه بين بعض مشاكل المرأة الروسية وبين كل النساء فى الدول الغربية، فإن معظم المشاكل التى ذكرتها النشرة كانت مشاكل روسية بحتة، وكان واضحا أن النساء السوفيت معجبات بالمدى الذى وصلت إليه حركة المرأة الغربية، ولكنهن لا يشاطرنها نفس الآمال التى زعمن أنها تحققت بفضل الثورة الروسية، حيث أصبحت المرأة الآن فى الاتحاد السوفيتى رائدة فضاء، وعاملة فى المصانع، بل على العكس، فإن معظم مطالب المرأة الروسية كانت تسير فى خط معاكس، فالمساواة التى وعدتهن بها الثورة الروسية قد دمرت الحياة النسائية السابقة دون أن يؤدى ذلك إلى إسعاد المرأة الروسية بأى حال من الأحوال.

وكما ذكرت الصحفية المنشقة «كيرأسابكير» لقد كف الرجل عن أن يكون محامى المرأة، ولكنه يتحول بعد إلى شريك يشاطرها كل شىء، وقد حذرت هذه

الصحفية فى مقالها نساء الغرب من التطرف فى دعوة المساواة التى تدمر قيم الأسرة والأمومة، وتطيح بدور المرأة كمصدر للحب والاستقرار، والحركة لا ترفض مبدأ المساواة، ولكنها ترفض المساواة الشكلية التى تساوى المرأة بالرجل حتى فى الأعمال التى يسعى العلم إلى تخليص الرجال منها.

أما «تاتياجورنشيفا» وهى فيلسوفة ذات تعليم ماركسى، فقد أيدت فى مقالها كل ما ذكرته زميلتها الصحفية «كيرأسابكير» وأضافت تقول: إن نظام التعليم السوفيتى قائم على أساس مساواة مثالية زائفة بين الرجل والمرأة تنطوى فى حقيقتها على احتقار للأنوثة، وإن هذا النظام لم يؤد إلى تحرير المرأة، وإنما إلى تأنيث الرجال، بعد أن فقدوا حريتهم وقدرتهم على تحمل المسئولية.

وقالت «تاتيا» فى مقالها: إن المرأة سواء فى الأسرة التى تحللت بسبب إدمان الرجال للخمور، وأيضا فى المصانع، تشكل قوة العمل الرئيسية، وإن العمل فى البيت والمصنع يثقل كاهلها، ويدمر معنوياتها، وذكرت أن المرأة والرجل على السواء قد تحولا فى المجتمع السوفيتى إلى جنس ثالث، هو جنس سوفيتى محض، لا مثيل له فى أى مجتمع آخر.

لقد أطلت فى هذا الاقتباس لأننى أحببت أن يعرف الكثيرون ممن يغترون بالدعاوى العريضة - أحببت - أن يروا الحقيقة ماثلة أمام أعينهم على ألسنة نساء من قلب الاتحاد السوفيتي المنحل، نشأن وتربين فى ظل الثقافة الروسية، والتوجيه الروسى، إلا أن ذلك على الرغم من الجهود الضخمة التى بذلت فى سبيل السيطرة على العقول والتصرفات لم يستطع أن يحجب الحقيقة المرة التى انبعثت من صيحات هؤلاء النسوة بعد أن جاوز الأمر حدَّ الاحتمال، لعله يكون فيه عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

ج - أقام الإسلام العلاقة بين أفراد المجتمع على أساس الأخوة التى تدعو إلى التناصر والتعاون على تحقيق الخير العام لمن يعيش فى ظلال هذا المجتمع الذى

أقامه الإسلام، وذلك مأخوذ من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾(1). وقول النبى ﷺ: «المُسْلمُ أخُو المُسْلم لا يَظلمهُ ولَا يُسْلمهُ، ولا يَخْذله، ومَنْ كَان فى حَاجة أخيه كَان الله فى حَاجَته، والله فِى عَوْن العَبْد مَا كَانَ العَبْدُ فِى عَوْن أخيه»(2).

د ـ جعل الإسلام التكافل بين أفراد المجتمع المسلم قاعدة التعامل بينهم أخذا من قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ ﴾(3). وقول النبى ﷺ: «حَقُّ المُسْلم عَلَى المُسْلم ستٌ: إذَا لَقيتهُ فَسَلمْ عَليْه، وإذا دعَاك فَأجبْه، وإذَا استَنْصَحكَ فَانصَحْ لَهُ، وإذَا عَطس فَحَمدَ الله فشَمِّتْهُ، وإذَا مَرض فَعُدْهُ، وإذَا مَات فَاتبَعهُ»(4). ومن أجل هذا التكافل ضرب المسلمون الأول المثل الفذة فى الإيثار حتى استحقوا ثناء الله عليهم فى كتابه حين قال: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(5). وحث النبى ﷺ على أن يكون التكافل سمة المجتمع المسلم، وذلك بدعوة القوى إلى معاونة الضعيف، وحث الغنى على مد يد المساعدة إلى الفقير فى حديثه الجامع الذى يقول فيه: «مَنْ نَفَّس عَنْ مُسْلم كُرْبَة منْ كُرَب الدُّنْيَا نَفَّسَ الله عَنْهُ كُرْبَةً منْ كُرَب يَوْم القيَامَة، ومنْ يَسّر عَلَى مُعْسر فى الدُّنيا يَسَّر الله عَلَيْه فِى الدُّنْيا والآخرة، والله فِى عَوْن العَبْد مَا كَانَ العَبْدُ فِى عَوْن أخيه»(6).

هـ ـ وأقام نظام الحكم على الشورى التى تعطى صاحب الرأى الفرصة كى يعبر عن رأيه فيما يعرض من قضايا عملا بقول الله تعالى فى وصف المؤمنين: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾

(1) الحجرات: 10

(2) جاء الحديث بصيغ متقاربة فى مسلم وأبى داود ومسند أحمد. راجع الكنز الثمين، ص606، 607.

(3) المائدة: 2

(4) راجع «الأدب المفرد» للإمام البخارى، ج2 ص481

(5) الحشر: 9

(6) راجع مختصر صحيح مسلم ج2 ص98

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴾(1). وأثنى القرآن الكريم على النبى ﷺ بصفات أخذ نفسه بها، ودعاه إلى مشاورة المؤمنين ليكون ذلك تعليما لنا فى منهج حياتنا، فقال: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾(2).

وقد طبق رسول الله ﷺ الشورى فى حياته مرات عديدة، وطلب صراحة من أصحابه أن يمدوه بمشورتهم كلما حزب أمر أو نزلت بالمسلمين نازلة تحتاج إلى تداول الرأى، واستعراض وجهات النظر، كان ذلك فى غزوة بدر حين قال قبل أن يقرر خوض المعركة: **«أشيروا علىّ أيها الناس»** وكررها مرات، وكان ذلك أيضا قبل غزوة أحد، وفى غزوة الخندق، كان رسول الله قد أجرى مفاوضة مع غطفان، وقبل أن يمضى الاتفاق شاور سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فسألاه: هل هذا وحى من الله فليس لنا أن نبدى فيه رأيا؟ فقال: **«إنما فعلت ذلك لأجلكم»** فأجابا: إننا لما كنا فى الجاهلية لم يطمعوا فى أن ينالوا شيئا قط من ثمار المدينة، فكيف وقد أكرمنا الله بالإسلام؟! ونزل رسول الله على رأيهما(3).

وترتب على مراعاة هذه الأسس أن أخذ الإسلام فى اعتباره العمل بها كلما عالج قضية من قضايا الحكم والإدارة، أو وسيلة من وسائل المال واستثماره، أو موقفا من مواقف القضاء والفصل بين الناس، حتى يتحقق للناس ما يرجون من سعادة وطمأنينة فى هذه الحياة، ووضع العلماء هذه القاعدة التى تجمع الأصول العامة لحقوق الناس من إقرار «حرمة الدم والعرض والمال والعقل والدين».

وقد أرسى الإسلام القواعد العامة لهذه المبادىء، وترك وسيلة تطبيقها لأهل كل جيل بالطرق التى تناسبهم، وتحقق لهم ما يريدون، مما يجعل الإسلام يتسم

(1) سورة الشورى، الآيتان: ٣٨، ٣٩.

(2) الآية رقم ١٥٩ من سورة آل عمران.

(3) يراجع فى ذلك تاريخ الطبرى ج٢ ص٤٢٣ والطبقات الكبرى ج٢ ص١٤ والبداية والنهاية ج٢ ص٢٦٢.

بنظرة مرنة تعين على استيعاب كل ما يجد من أحداث، وما يستحدث من نظم ومن أجل ذلك كان للإسلام منهجه الخاص والمتميز فى كل جانب من الجوانب التى تحتاجها حياة الناس، سواء فى مجال الحكم والإدارة، أو فى مجال القضاء وإقامة العدل، أو فى مجال المال والاستثمار بما يحقق الكفاية والعدل للناس جميعا.

وقد تكفلت كتب الفقه السياسى وفقه المعاملات والنظام المالى فى الإسلام ببسط القول فى هذه المجالات، فليرجع إليها من يريد المزيد، من أمثال كتب «الأحكام السلطانية» للماوردى وابن أبى يعلى، وكتب (الخراج) لأبى يوسف وسواه، وكتب (الأموال) لأبى عبيد القاسم بن سلام وسواه، و(منهاج السنة) لابن تيمية، إلى جانب ما كتبه المعاصرون حول النظم السياسية والمالية فى الإسلام ومنها: (النظريات السياسية الإسلامية) للدكتور محمد ضياء الدين الريس، و(الخلافة والإسلام فى العصر الحديث) للدكتور محمد ضياء الدين الريس أيضا، و(نظام الحكم فى الإسلام) للدكتور محمد يوسف موسى، و(الدولة فى الإسلام) للأستاذ خالد محمد خالد، و(الدين والدولة) للدكتور محمد البهى، و(الإسلام عقيدة وشريعة) للإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت، و(الإسلام والشيوعية) للإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود، و(الإسلام والشيوعية) للدكتور عبد المنعم النمر، و(نظام الحكم فى الإسلام) للدكتور محمد إبراهيم الجيوشى.

❁❁❁

الدعاة من الصحابة رضوان الله عليهم

١- أبو بكر

٢- عمر

٣- عثمان

٤- علي

٥- مصعب بن عمير

الصديق أبو بكر

اسمه: عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم، والمتداول بين الناس أن اسمه أبو بكر بن أبى قحافة، ولقب بعتيق، والصديق، وقد أوردت الكتب أسبابا كثيرة لتلقيبه بعتيق وبالصديق.

وسبب تسميته عتيقا لعتاقة وجهه وجماله، وقيل: إن أمه كانت لا يعيش لها ولد، فلما ولدته استقبلت به البيت، وقالت: اللهم إن هذا عتيقك من الموت، فهبه لى، فعاش، فسمته عتيقا.

وروى أن سبب تسميته عتيقا قول النبى ﷺ: **«أنت عتيق الله من النار»** أو قوله: **«من سره أن ينظر إلى عتيق من الناس فلينظر إلى هذا»**.

وأما تسميته الصديق فقد أوردت الكتب أيضا أكثر من سبب لتسميته بالصديق، خلاصتها: أنه كان فى الجاهلية وجيها رئيسا يتحمل الديات، فكان إذا تحمل شيئا من ذلك صدقته قريش وحملوا معه ما تحمله، ثقة فيه.

وروى أن سبب هذه التسمية تصديقه للنبى ﷺ عقب حادث الإسراء، حينما جاءه كفار قريش وقالوا له: هل لك إلى صاحبك؟! يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس.

قال: وقد قال ذلك؟

قالوا: نعم

قال: لئن قال ذلك لقد صدق.

قالوا: تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟!

فقال: نعم، إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، فى خبر السماء فى غدوة وروحة، فلذلك سمى الصديق(١).

أحداث مهدت لإسلامه:

روت الكتب أن أبا بكر كان فى تجارة إلى الشام، فرأى رؤيا، فذهب إلى بحيرا الراهب طالبا منه أن يعبرها له.

فسأله بحيرا: من أين أنت؟

أجاب أبو بكر: من مكة.

فسأله: من أيها؟

أجاب: من قريش.

قال: فأى شيء أنت؟

قال: تاجر.

قال: إن صدق الله رؤياك فإنه يبعث نبى من قومك تكون وزيره فى حياته وخليفته من بعد وفاته، فاحتفظ أبو بكر بذلك سرا فى نفسه حتى بعث النبى ﷺ فذهب إليه، وقال: يا محمد: ما الدليل على ما تدعى؟

قال: الرؤيا التى رأيت بالشام.

فعانقه، وقبل بين عينيه، وقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك رسول الله.

كذلك من مقدمات إسلامه ما روى عن أم سلمة قالت: كان أبو بكر خدنا للنبى ﷺ وصفيا له، فلما بعث ﷺ انطلق رجال من قريش إلى أبى بكر، فقالوا: يا أبا بكر: إن صاحبك هذا قد جن.

---

(١) راجع الرياض النضرة، ج١ ص٧٨، ٧٩

قال أبو بكر: وما شأنه؟

قالوا: هو ذاك يدعو فى المسجد إلى توحيد إله واحد، ويزعم أنه نبى.

قال أبو بكر: وقال ذاك؟

قالوا: نعم هو ذاك فى المسجد يقول.

فقصد أبو بكر إلى بيت النبى ﷺ فطرق عليه الباب، فخرج له، فلما التقيا قال له أبو بكر: يا أبا القاسم: ما الذى بلغنى عنك؟

قال: وما بلغك عنى يا أبا بكر؟

قال: بلغنى أنك تدعو لتوحيد الله، وزعمت أنك رسول الله.

فقال النبى ﷺ: **«نعم يا أبا بكر إن ربى - عز وجل - جعلنى بشيرا ونذيرا وجعلنى دعوة إبراهيم، وأرسلنى إلى الناس جميعاً»**

قال له أبو بكر: والله ماجربت عليك كذبا، وإنك لخليق بالرسالة لعظم أمانتك، وصلتك لرحمك، وحسن فعالك، مد يدك فأنا أبايعك. فمد رسول الله ﷺ يده فبايعه أبو بكر وصدقه، وأقر أن ما جاء به الحق(1).

ومن أجل ذلك قال رسول الله ﷺ: **«مَا دَعَوْتُ أحَداً إلَى الإسْلام إلا كَانَتْ منه كَبْوة ونَظر وتَردُّد إلا مَا كَانَ مِنْ أَبِى بَكْر بْنِ أَبِى قُحَافَةَ مَا عَكم عَنْه حِين ذَكَرْتُهُ لَهُ وَمَا تَرَدَّدَ فيه»**.

ومما يتصل بما سبق ما روى عن ابن عباس: أن أبا بكر صحب النبى ﷺ وهو ابن ثمان عشرة سنة، وهم يريدون الشام فى تجارة حتى نزلوا منزلا فيه سدرة، فنزل رسول الله ﷺ فى ظلها، ومضى أبو بكر إلى راهب يقال له بحيرا يسأله عن الدين.

فقال: من الرجل الذى فى ظل السدرة؟

(1) راجع الرياض النضرة، ج1 ص83، 84

فقال: ذاك محمد بن عبد الله.

قال: والله هذا نبى الله، ما استظل تحتها أحد بعد عيسى بن مريم إلا محمد ﷺ فوقع فى قلب أبى بكر اليقين[1].

هذه الأحداث التى مرت إلى جانب صحبة أبى بكر لرسول الله ﷺ منذ الشباب الباكر جعلته يكون فى مقدمة الذين آمنوا بالإسلام وصدقوا برسالته.

دعوته إلى الإسلام:

وما كاد أبو بكر يسلم حتى بدأ نشاطه فى سبيل الدعوة إلى الدين الجديد، وجذب الأنصار إليه، وساعد على قيامه بالدعوة إلى الإسلام مبكرا ما تميز به بين رجال قريش من ألفة ومحبة، وخلق سمح، ومعرفة بأنساب قريش، وما فيها من خير وشر، وكان لاشتغاله بالتجارة يغشى الناس مجلسه وينتفعون بعلمه وتجاربه، ويأنسون بحسن خلقه، فكان يختار من يثق فيه ممن يترددون عليه فيدعوهم إلى الإسلام، فدخل فى الإسلام على يديه عدد من السابقين إلى الإسلام، ومنهم عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبى وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وخالد بن سعيد بن العاص، وكان يذهب بهم إلى رسول الله ﷺ ليعلنوا إسلامهم بين يديه.

وكان لبعضهم مواقف وقصص دعت إلى إقبالهم على الإسلام وذهابهم إلى أبى بكر يحدثونه فى أمورهم، ومن هؤلاء خالد بن سعيد بن العاص، فقد رأى أنه واقف على شفير نار عظيمة، وأن أباه يدفع به إليها، وأن رسول الله ﷺ يمسك به ويحول بينه وبين الوقوع فيها، فأهمه أمر هذه الرؤيا، وذهب إلى أبى بكر يقصها عليه لعله يجد عنده لها تفسيرا لما كان يعرف من علم أبى بكر بين رجالات قريش والثقة البالغة فيه، فقال له أبو بكر: «أريد بك خيرا؛ هذا رسول الله ﷺ فاتبعه، والإسلام يحجزك أن تقع فيها، وأبوك واقع فيها» فلقى خالد رسول الله ﷺ بأجياد، فقال: يا محمد إلام تدعو؟

(١) المصدر السابق، ص٨٧

قال: «أَدْعُو إِلَى اللهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُه وتَخْلَعُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَةِ حَجَرٍ لا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلا يَضُرُ وَلا يَنْفَعُ وَلا يَدْرِى مَنْ عَبَدَهُ مِمَّنْ لَمْ يَعْبُدْهُ».

فلم يتردد خالد فى إعلان إسلامه(١).

وسنرى فى عرضنا لجهود عثمان - رضى الله عنه - فى سبيل الدعوة قصة إسلامه وحديثه إلى أبى بكر - رضى الله عنه - بشأنها.

أول خطيب يدعو إلى الإسلام:

كان أبو بكر - رضى الله عنه - أول من وقف خطيبا فى مكة يدعو إلى الإسلام، وتفصيل ذلك أن أبا بكر - رضى الله عنه - أخذ يلح على رسول الله ﷺ فى الظهور وإعلان الإسلام، وهم يجتمعون فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ورسول الله ﷺ يقول له: يا أبا بكر: إنا قليل. وكانوا أقل من أربعين رجلا فلما أكثر أبو بكر خرج رسول الله ﷺ وتفرق المسلمون فى نواحى المسجد، وقام أبو بكر خطيبا فى الناس يدعو إلى الله ورسوله، وكان رسول الله ﷺ جالسا فى المسجد، فثار المشركون على المسلمين وضربوهم، وضرب أبو بكر ضربا شديدا حتى أخذ عتبة بن ربيعة يضربه على وجهه بنعلين مخصوفين حتى تورم وجهه، ولم يعرف وجهه من أنفه لما أصابه من الانتفاخ من أثر الضرب، وغشى على أبى بكر من أثر الضرب، حتى وصل الخبر إلى بنى تيم قوم أبى بكر، فجاءوا وحملوه إلى بيته وهم لا يشكون فى موته حتى قالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة، وأخذوا يراقبون أبا بكر ويحاولون إفاقته حتى أفاق، وكان أول ما نطق به قوله: مافعل رسول الله ﷺ؟ فنال قومه منه وعذلوه، ثم انصرفوا بعد أن اطمأنوا على حياته، وأوصوا أمه أم الخير بما تصنع معه من طعام وشراب، فلما خلا البيت به وبأمه أخذ يسألها: مافعل رسول الله ﷺ؟

---

(١) راجع أسد الغابة ج٢ ص٩٧ وأنساب الأشراف، قسم ٢ ج٤ ص١٢٥ والطبقات الكبرى قسم ١ ج٤ ص٦٨ وتهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر، ج٥ ص٤٦

فكان جوابها: والله ما أعلم بصاحبك. وأراد أبو بكر أن يطمئن على رسول الله ﷺ فطلب إلى أمه أن تذهب إلى أم جميل بنت الخطاب ـ وكانت من المسلمات السابقات ـ لتسألها قائلة: إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله، فأنكرت أم جميل معرفتها بالنبى وأبى بكر خشية أن يكون فى الأمر خديعة، ثم أرادت أن تستوثق من الأمر فقالت: إن أحببت أن أمضى معك إلى ابنك فعلت، قالت: نعم، ومضت معها حتى رأت أبا بكر صريعا دنفا. فدنت أم جميل منه وصاحت قائلة: إن قوما نالوا منك هذا لأهل فسق، وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك. فسألها أبو بكر: ما فعل رسول الله ﷺ؟.

فقالت: هذه أمك تسمع، فطمأنها قائلا: لا عين عليك منها. فقالت أم جميل: سالم صالح.

فسأل: أين هو؟ قالت: فى دار الأرقم. فأقسم أن لا يذوق طعاما ولا شرابا حتى يأتى رسول الله ﷺ.

فأمهلتاه حتى هدأت الرجل وسكن الناس فخرجتا به يتكىء عليهما حتى دخل على النبى ﷺ فانكبّ عليه يقبله، وانكب عليه المسلمون، ورقّ له رسول الله ﷺ رقة شديدة.

فقال أبو بكر: بأبى أنت وأمى، ليس بى إلا ما نال الفاسق من وجهى. هذه أمى بَرة بوالديها، وأنت مبارك، فادعها إلى الله، وادع الله ـ عز وجل ـ لها عسى أن يستنقذها بك من النار. فأسلمت أمه فى تلك الليلة(١).

تعرضه للأذى دفاعاً عن رسول الله:

قد رأينا ما أصاب أبا بكر وتَعَرُّضَ حياته للهلاك فى الموقف الماضى، ولم يكفه ذلك عن المسارعة إلى الدفاع عن رسول الله ﷺ إذا سمع أنه تعرض للأذى، ومما يتصل بذلك أن المشركين كانوا جالسين فى مجالسهم حول الكعبة، فتذكروا أمر رسول الله ﷺ وما يقوله من عيب آلهتهم، وأخذ بعضهم يحث البعض على

(١) الرياض النضرة، جا ص٧٥، ٧٦

التعرض له حتى يكف عن عيب آلهتهم. وبينما هم يخوضون فى الحديث حول هذا الأمر إذ أقبل رسول الله ﷺ فقاموا إليه وأحاطوا به، وأخذوا يقولون له: الست الذى تقول فى آلهتنا كذا وكذا؟ - يقصدون عيبه آلهتهم - فقال: بلى، فاجتمعوا عليه يحاولون النيل منه، ووصلت الأخبار إلى أبى بكر فأقبل مسرعا، فوجدهم مجتمعين حول رسول الله ﷺ فقال: ويلكم ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾(١).

فما كان منهم إلا أن تركوا رسول الله ﷺ وانهالوا عليه يضربونه حتى نالوا منه نيلا شديدا، حتى إن شعره كان يتساقط من شدة ما أصابه، وقالت أسماء التى روت هذه الواقعة: فرجع إلينا، فجعل لا يمسّ شيئاً من غدائره إلا جاء معه، وهو يقول: **«تباركت ياذا الجلال والإكرام»**(٢).

وقد تتابع أذى قريش لأبى بكر - رضى الله عنه - فاستأذن رسول الله ﷺ فى الهجرة إلى الحبشة، فأذن له، فخرج حتى إذا كان من مكة على مسافة يومين لقيه ابن الدُّغُنَّة سيد الأحابيش فقال: إلى أين يا أبا بكر؟ قال: أخرجنى قومى، وآذونى وضيقوا علىّ، فأريد أن أسيح فى الأرض فأعبد ربى.

قال: ولم؟ فإن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يُخرج مثله، والله إنك لتزين العشيرة؛ إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق، وأنا لك جار، فارجع فاعبد ربك ببلدك. فرجع، وارتحل معه ابن الدغنة، وطاف ابن الدغنة فى أشراف قريش، فقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يُخْرَجُ، أتخرجون رجلا يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقرى الضيف، ويعين على نوائب الحق؟! يا معشر قريش: إنى قد أجرت ابن أبى قحافة، فلا يعرض له أحد إلا بخير. فكفوا عنه وقالوا له: مُر أبا بكر فليعبد ربه فى داره ويصلّ فيها، وليقرأ ما شاء ولا يؤذينا بذلك ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا. فأخبره ابن الدغنة بذلك.

---

(١) سورة غافر، من الآية: ٢٨

(٢) راجع الرياض النضرة، ج١ ص٩٣

وأقام على ذلك مدة، ثم بدا له فابتنى مسجدا بفناء داره، وكان يصلى فيه ويقرأ القرآن.

وكان رجلا بكاء، فكان إذا قرأ القرآن لا يملك عينيه، فازدحم عليه نساء المشركين وأبناؤهم تأثرا بما يسمعون منه، فأفزع ذلك قريشا، فأرسلوا إلى ابن الدغنة، فقدم عليهم فقالوا: إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه فى داره لكنه تجاوز ذلك فابتنى مسجدا بفناء داره، وأعلن بالصلاة والقراءة فيه، وإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا فَانْهَهُ، فإن أحب أن يعبد ربه فى داره فعل، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد عليك ذمتك، فإنا كرهنا أن نخفرك، ولسنا مقرين لأبى بكر الاستعلان.

فذهب ابن الدغنة إلى أبى بكر، وذكّره بما اتفقا عليه لما أجاره، وخيره بين أن يلتزم بما اتفقا عليه أو أن يرد عليه جواره، قائلا: قد علمت الذى قد عاقدتك عليه فإما أن تقتصر على ذلك وإما أن تردّ علىّ ذمتى، فإنى لا أحب أن تسمع العرب أنى أخفرت في رجل عقدت له.

فقال أبو بكر: فإنى أردّ عليك جوارك، وأرضى بجوار الله ـ عز وجلّ ـ.

وعقب ذلك لقى أحد سفهاء قريش أبا بكر فحثا على رأسه التراب، وحدث أن مر به الوليد بن المغيرة أو العاص بن وائل فلما قال له أبو بكر: ألا ترى إلى ما صنع هذا السفيه؟!. فكان جوابه: أنت صنعت هذا بنفسك(١).

ولكن ذلك كله وأكثر منه لم يَفُتَّ فى عزم أبى بكر ولم يجعله يتراجع؛ لأن الإيمان قد عمر قلبه، وضرب المثل بصبره وتحمله الأذى وتعرضه لفعل السفهاء ضرب المثل بذلك لأصحاب العقائد أن يصبروا ويصابروا؛ فإن الله مع الصابرين، وإن الحق لابد له أن يعلو، ولابدّ للباطل أن ينحسر ظله ويزول سلطانه، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم مؤمنون.

واستحق أبو بكر بهذا وسواه قول النبى ﷺ فى حقه: «**لو وزن إيمان هذه الأمة بإيمان أبى بكر لرجح إيمان أبى بكر**».

---

(١) راجع السيرة النبوية لابن كثير، ج٢، ص٦٥، ٦٦

وقد تابع أبو بكر - رضى الله عنه - جهاده فى سبيل الدعوة والحفاظ على الضعفاء من المسلمين الذين كانوا يتعرضون للأذى والعذاب من زعماء قريش ورجالاتها، فسخر أمواله لحمايتهم وإنقاذهم مما يعانونه من العذاب.

عتق عدد من الأرقاء المسلمين:

رأى أبو بكر - رضى الله عنه - الأرقاء من المسلمين يتعرضون لاضطهاد مالكيهم، والتفنن فى تعذيبهم ليحملوهم على الكفر فَأَرَّقَهُ ذلك وجعل أمواله فى خدمة هؤلاء ورفع المعاناة عنهم، فكان يساوم مالكيهم فيهم ويشتريهم ثم يعتقهم ليعبدوا الله وهم آمنون من بطش ساداتهم، وفى مقدمة هؤلاء الذين اشتراهم أبو بكر وأعتقهم: بلال بن أبى رباح مؤذن رسول الله ﷺ الذى كان أمية بن خلف يلقيه فى رمضاء مكة تحت حر الشمس المحرقة، ويضع على صدره الصخر ويقول له: ستبقى هكذا حتى تكفر بمحمد، وكان جواب بلال دائما «أحد أحد» وحتى قال عمر بن الخطاب بعد ذلك: أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا.

تسخيره أمواله فى خدمة الدعوة ومؤازرة رسول الله صلى الله عليه وسلم

فى كل مواقفه، حتى إنه أنفق كل ماله فى سبيل الدعوة، ولما سأله رسول الله ﷺ ماذا أبقيت لأهلك؟

أجاب: أبقيت لهم الله ورسوله.

مصاحبته لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى مواسم الحج:

كان رسول الله ﷺ يتعرض للقبائل فى مواسم الحج يعرض عليها الإسلام، ويدعوها إلى مؤازرته، وكان أبو بكر - رضى الله عنه - يصحبه ويقدمه ويعرف القبائل به، ومن أبرز المواقف فى ذلك موقفه من لقاء بنى شيبان والحوار الذى دار بينهم وبين رسول الله بعد تقديم أبى بكر له، وقد عرضنا ذلك الموقف وتفاصيل الحوار الذى دار فيه وما يستنتج منه فى كتابنا (وسائل الدعوة) فلا داعى لإعادته، ويمكن الرجوع إليه هناك.

هذه بعض المواقف الدعوية لأبى بكر - رضى الله عنه - فى حياة النبى ﷺ

وقد ازدادت هذه المواقف قوة واجتهادا بعد أن لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى، وصار أبو بكر المسئول الأول فى الدولة الإسلامية عن الدعوة واستمرارها، وكذلك كان الخلفاء الراشدون من بعده، كل فى مدة خلافته؛ ذلك لأنهم كانوا يعتبرون بسيرتهم وتضحياتهم ومسلكهم فى الحفاظ على الدين والدفاع عنه، وفى أخلاقهم التى اكتسبوها من الإسلام كانوا يعتبرون بكل ذلك نماذج للدعاة، يستفيدون من الإلمام بسيرهم، والوقوف على المشاهد التى تعود بالنفع على القارىء والمستمع على السواء.

ولسنا نقصد من تناولنا لبعض مواقف الخلفاء الراشدين أن يكون التناول تاريخيا يستوعب حياتهم منذ الميلاد حتى الوفاة، وما يتخلل ذلك من أحداث؛ لأن هذا أمر تكفل به المؤرخون، وإنما هدفنا من التناول أن نختار بعض المواقف التى كانت ذات أثر بعيد فى الدعوة ومسيرتها، وتركيزنا على الخلفاء الراشـدين مـرده أن النبى ﷺ دعا إلى الاقتداء بهم، والأخذ عنهم، واتباع سـنتهم بقـوله: **«عَلَيْكُم بسُنَّتِى وَسُنَّة الخُلَفَاء الرَّاشِدين المَهْدِيِّينَ من بَعْدى، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّواجذ»**(١).

وقد استمرت الخلافة الراشدة ثلاثين عاما بعد وفاة رسول الله ﷺ انتهت فى العام الأربعين من الهجرة، وهذا تصديق للحديث المنسوب إلى رسول الله ﷺ الذى يقول: **«الخلافة بعدى ثلاثون عاما، ثم تكون بعد ذلك ملكا عضوضا»** وهكذا تحقق ما جاء فى حديث رسول الله ﷺ فتنازل الحسن بن على لمعاوية - رضى الله عنهم - عن الخلافة بعد أن رأى المسلمين يقتل بعضهم بعضا، واشترط على معاوية أن يكون الأمر بعده شورى، يختار المسلمون من يتولى أمرهم، إلا أن معاوية لم يلتزم بهذا الشرط فعهد بالخلافة من بعده لابنه يزيد، واستمر الأمر كذلك يعهد السابق للاحق على سبيل الملك وولاية العهد.

وما فعله الحسن - رضى الله عنه - يذكرنا بحديث آخر لرسول الله ﷺ قاله

(١) ابن ماجه (المقدمة) رقم ٤٢، ٤٣ ضمن حديث طويل عن العرباض بن سارية، وأبو داود فى السنن برقم ٤٦٠٧ وأحمد فى مسنده ٤/ ١٢٦.

فى حق الحسن بن على ـ رضى الله عنهما ـ يقول: **«إن ابنى هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين»** وقد تحقق ما جاء فى الحديث فى حق الحسن ـ رضى الله عنه ـ حينما تنازل عن الخلافة لمعاوية حقنا لدماء المسلمين(١).

ولعلنا نعود بعد هذا الاستطراد مع الأحداث ـ وهو استطراد لابد منه؛ لأنه يكشف عن جوانب اقتضاها تحديد مدة الخلافة الراشدة، وكيف بدأ التحول إلى الملك العضوض كما سماه رسول الله ﷺ.

ولئن كنا قد وقفنا على بعض المواقف الدعوية فى حياة الخليفة الأول ـ رضى الله عنه ـ قبل توليه الخلافة، فإننا نبدأ فنتابع الحديث عن أبرز هذه المواقف بعد أن آل أمر المسلمين إليه، وقد أخذت الأحداث تتتابع منذ أعلن فى الناس وفاة رسول الله ﷺ وظهرت اتجاهات عدة فى التفكير فيمن يلى أمر المسلمين بعد رسول الله ﷺ فأبو بكر وبنو هاشم مشغولون بتجهيز رسول الله ﷺ والأنصار أخذوا يفكرون ـ وهم الأكثرية ـ فى المستقبل.

مواقف دعوية فى حياة أبى بكر بعد توليه الخلافة:

بدأت هذه المواقف ببيعة أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ بالخلافة وخطبته التى أعلن فيها منهجه فى الحكم وسياسة أمور المسلمين، ولعلنا نتساءل: كيف كانت البيعة؟ والأحداث التى واكبتها؟ وسبب ذلك أن الرسول ﷺ لم يعين أحدا للخلافة من بعده، وهذا هو مذهب أهل السنة جميعا، وعلى ذلك فأمر الخلافة قائم على الشورى، إلا أن الشيعة يرون غير ذلك؛ إذ يقولون إن رسول الله ﷺ قد أوصى بالخلافة من بعده لعلى ـ رضى الله عنه ـ وعلى أوصى لبنيه، وبنوه أوصوا لبنيهم فى أمور يطول شرحها، خلاصتها أنهم يرون أن الإمامة أو الخلافة بالنص، وشرح ذلك فى دراسة نظام الحكم فى الإسلام، وقد عرضنا ذلك بالتفصيل فى كتابنا: (نظام الحكم فى الإسلام) فليرجع إليه من يريد الوقوف على تفاصيل هذه القضايا.

---

(١) راجع مروج الذهب للمسعودى، ج٣ ص٨

حينما لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى كان ذلك مفاجأة غير متوقعة للمسلمين؛ لأنهم قد نسوا فى غمرة حبهم لرسول الله ﷺ أنه بشر يجرى عليه ما يجرى على البشر، وأن الله ـ سبحانه ـ قد ذكر ذلك فى كتابه الكريم حين قال: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾(١).

ولكن ما كاد خبر موت رسول الله ﷺ ينتشر حتى اختلفت ردود الفعل عند أصحابه ومنهم عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ على جلالته ومكانته فى الإسلام، فإنه حين سمع بنبأ وفاة رسول الله ﷺ ظن أن ذاك شائعة أطلقها المنافقون وقال: إن محمدا لم يمت، وإنما ذهب للقاء ربه كما ذهب موسى من قبل، فمن قال: إن محمدا قد مات قتلته بسيفي هذا.

وكان أبو بكر خارج المدينة حينذاك، فلما جاء دخل على رسول الله ﷺ وهو مُسَجًّى فى بردته فكشف عن وجهه وقبله، وقال: بأبى أنت وأمى طبت حيا وميتا يا رسول الله!! ثم خرج إلى الناس، فقال: أيها الناس: من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ ﴾(٢).

عندئذ قال عمر: كأننا لم نسمع بهذه الآية من قبل. وزال ما كان به من غضب وثورة.

وبذلك وضع أبو بكر الأمور فى نصابها، وذكّر الناس بأن كل حىّ له نهاية ينتهى إليها نبيا كان أو رسولا، ولاشك أن هذا الموقف من أبى بكر قد صحح بعض الأفكار التى ربما جالت بخواطر بعض الناس بالنسبة لحياة النبى ﷺ وموته، وكذلك ذكرت الناس، وأزالت الذهول عن المذهولين من وقع الخبر كما كان بالنسبة لعمر.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٠

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.

وأخذ أبو بكر يشترك مع بنى هاشم فى تجهيز النبى ﷺ استعدادا لدفن جثمانه الطاهر، وعلى الجانب الآخر حينما أصبحت وفاة رسول الله ﷺ أمرا واقعا إجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة واستدعوا سعد بن عبادة ـ وكان مريضا ـ باعتباره زعيم الخزرج، وأخذوا يتداولون القول فيمن يلى أمر المسلمين بعد رسول الله ﷺ.

وهذا يعنى أنه لم يكن هناك نصٌ عن رسول الله ﷺ على من يلى الأمر بعده لأنه لو كان هناك نص لما سمح الأنصار لأنفسهم أن يتجاهلوا ذلك النص وهم الذين مدحهم الله ـ سبحانه ـ بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(1).

والأنصار باجتماعهم هذا كانوا يرون أنهم أولى بتولى هذا الأمر بعد رسول الله ﷺ لأنهم هم الذين ناصروه وآووه وضحوا فى سبيل دينه واستشهد منهم من استشهد وجرح منهم من جرح، وقدموا للإسلام ما لم يقدمه أحد سواهم وأوشكت المداولات بينهم أن تصل إلى اختيار سعد بن عبادة ـ زعيم الخزرج ـ ليتولى أمر المسلمين.

وسرى خبر السقيفة حتى وصل إلى عمر بن الخطاب وأبى عبيدة بن الجراح ـ رضى الله عنهما ـ فتوجه عمر إلى بيت رسول الله ﷺ وأرسل إلى أبى بكر من يستدعيه قائلا: إنه قد حدث أمر لا بدّ لك من حضوره، فخرج أبو بكر إليهما، فأخبراه بخبر السقيفة فتوجه ثلاثتهم إلى هناك، وتقدم أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ فتحدث حديثا عرف فيه للأنصار فضلهم ومكانتهم وجهادهم فى نصرة الإسلام والتضحية فى سبيله والذود عنه، إلا أنه قال بعد ذلك: إن العرب لا تدين إلا لهذا الحىّ من قريش ـ فى كلام طويل يمكن الاطلاع عليه فى مراجعه ـ وختم حديثه بقوله: فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، لا نقطع أمرا دونكم.

---

(1) الحشر، الآية:9

عندئذ قال قائل من الأنصار: منا أمير ومنكم أمير. فكان الجواب: هيهات، لا يجتمع سيفان فى غمد واحد، ثم عرض عليهم أن يبايعوا أحد الرجلين: أبا عبيدة، أو عمر بن الخطاب، إلا أن عمر تقدم إلى أبى بكر، فقال: ابسط يدك نبايعك. وتتابع المجتمعون فبايعوا واحدا بعد الآخر، إلا أن ذلك بالطبع لم يرض سعد بن عبادة فلم يبايع آنذاك، وبعد أن دفن رسول الله ﷺ صعد أبو بكر - رضى الله عنه - المنبر فبايعه الناس بيعة عامة فى المسجد، ثم خطب فقال: «أيها الناس: إنى وليت عليكم ولست بخيركم، إن أحسنت فأعينونى، وإن أسأت فقومونى، القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت فلا طاعة لى عليكم».

بهذا الموقف أنقذ أبوبكر المسلمين من فتنة كادت تعصف بهم وتفرق كلمتهم وهكذا بدأ أبو بكر مسيرته فى الحفاظ على وحدة المسلمين، والانطلاق بهم نحو تحقيق ما أمر الله به، وأمر به رسوله ﷺ.

وفى الموقفين السابقين عقب وفاة رسول الله ﷺ وضح جهد أبى بكر الدعوى حيث أعاد إلى النفوس رشدها بعد أن أذهلها موت رسول الله ﷺ، ووقى المسلمين شر الفرقة ببيعته وإعلانه عن منهجه فى الحكم القائم على اتباع أمر الله ورسوله.

أما الموقف الثالث فتمثل فى مواجهة المرتدين ومانعى الزكاة، خلاصة ذلك أنه قد ظهرت حركة ردة بين بعض القبائل أواخر حياة رسول الله ﷺ لما ادعى مسيلمة الكذاب أنه نبى يوحى إليه، وزادت هذه الحركة اتساعا بعد وفاة رسول الله ﷺ فظهر الأسود العنسى مدعيا النبوة فى اليمن، وادعت سجاح أنها نبية وتم لقاء بينها وبين مسيلمة فيه كثير من المخزيات والمضحكات التى تمت بينهما لما التقيا فى خيمة مسيلمة. ومن أراد أن يعرف تفاصيلها فليرجع إلى كتب التاريخ، وبخاصة (تاريخ الأمم والملوك) لابن جرير الطبرى، لأن القلم يعف عن تسجيلها

فى هذا المقام. وتبع ذلك ظهور حركة مانعى الزكاة، هؤلاء الذين كانوا يظنون أن الزكاة تدفع لرسول الله ﷺ فقط، ومادام قد لحق بربه فليس - فى زعمهم - من حق أبى بكر أن يتقاضاها، وهم فيما زعموا مخطئون؛ لأن الزكاة ليست حقا لرسول الله ﷺ ولا لأبى بكر - رضى الله عنه - وإنما هى أحد أركان الإسلام الخمسة المعلومة من الدين بالضرورة، من ينكرها فقد كفر، ولما واجه أبو بكر هذه الحركة بشقيها استعد لملاقاتها بحزم، وأعد الجيوش لمحاربة المرتدين ومانعى الزكاة.

إلا أنه بالنسبة لمانعى الزكاة كان قد جرى حوار بين أبى بكر وعمر حول شرعية محاربتهم، وكان من رأى عمر أن هؤلاء قد شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فكيف نحاربهم وقد قال رسول الله ﷺ ما معناه: «**من شهد أن لا إله إلا الله عصم منى ماله ودماءه إلا بحقها**» فكان جواب أبى بكر - رضى الله عنه -: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه، فإن «لا إله إلا الله» لها حقوق، ومن حقها أداء الزكاة، وفى هذا إشارة إلى ما قاله رسول الله ﷺ: «**إلا بحقها**».

وانتهى الحوار باقتناع عمر برأى أبى بكر.

وكان لموقف أبى بكر هذا أثره البالغ فى حماية وحدة الأمة وانطلاق الدعوة فى طريقها كما أمر الله ورسوله، وإخافة كل من تسول له نفسه أن يخرج عن نظام الإسلام وحكمه، وبذلك وضعت الأمور فى نصابها، وعاد المانعون إلى أداء الزكاة كما كان الأمر من قبل، وأدركوا أن هذه فريضة إلهية تشكل ركنا من أركان الدين وأساسا من أسسه، كما قال النبى ﷺ: «**بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا**»(١) وليست إتاوة لرسول الله ولا لأبى بكر.

---

(١) حديث متفق عليه

وكذلك أدى موقف أبى بكر الحازم إلى القضاء على حركتى المرتدين ومانعى الزكاة اللتين هددتا الإسلام وأنذرتا بخطر عظيم دفع الله شره وبلاءه بفضل حزم أبى بكر وصلابته فى الحق.

ولنا أن نتصور لو لم يتخذ أبوبكر هذا الموقف الحازم من حركتى المرتدين ومانعى الزكاة ماذا كانت تكون النتيجة؟!

إننا نسجل ـ بناء على ما أثبته التاريخ ـ أن أبا بكر بموقفه هذا قد حمى الإسلام ودعوته من تلك البلبلة التى كانت ستحملها الأحداث لو تراخى فى مواجهتها.

هذا موقف لابد أن يسجله الدعاة لأبى بكر فى خدمته للإسلام ودفاعه عنه، وحمايته لقيمه ومبادئه، ومواجهته للمتربصين به المحاولين الخروج عليه.

وبذلك سارت سفينة الإسلام إلى غايتها، وبلغت شاطىء الأمان، فجزى الله أبا بكر عن الإسلام والمسلمين خيرا.

❁❁❁

الفاروق عمر بن الخطاب

أمير المؤمنين أبو حفص الفاروق عمر بن الخطاب بن نفيل العدوى، يلتقى مع النبى ﷺ فى جده كعب.

وهو أول من سمى أمير المؤمنين، ولقب بالفاروق؛ لأنه فرق بين الحق والباطل. ويروى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ قال: سألت عمر: لأى شىء سميت الفاروق؟.

فقال: أسلم حمزة قبلى بثلاثة أيام، ثم شرح الله صدرى للإسلام فقلت: الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، فما فى الأرض نسمة هى أحب إلىّ من نسمة رسول الله ﷺ فقلت: أين رسول الله ﷺ ؟ قالت أختى: هو فى دار الأرقم بن أبى الأرقم عند الصفا، فأتيت الدار وحمزة فى أصحابه جلوس فى الدار، ورسول الله ﷺ فى البيت، فضربت الباب، فاستجمع القوم، فقال لهم حمزة: ما لكم؟! قالوا: عمر بن الخطاب!! قال: فخرج رسول الله ﷺ فأخذ بمجامع ثيابه ثم نتره نترة فما تمالك أن وقع على ركبتيه، فقال: «ما أنت يا عمر؟» قال: قلت: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنك محمد عبده ورسوله. قال: فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد.

قال: فقلت: يا رسول الله: ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟.

قال: «بَلَى وَالَّذى نَفْسِى بيده، إنَّكُمْ عَلَى الحَقّ إنْ مِتُّمْ وإنْ حَيِيتُمْ».

قلت: ففيم الاختفاء؟ والذى بعثك بالحق لتخرجن، فأخرجناه ﷺ فى

صفين، حمزة فى أحدهما، وأنا فى الآخر، ولى كديد[1] ككديد الطحين حتى دخلنا المسجد، قال: فنظرت قريش إلىّ وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها، فسمانى رسول الله ﷺ يومئذ الفاروق، فرق الله بى بين الحق والباطل[2].

فى الطريق إلى الإسلام:

كان عمر فى مبدأ أمره شديدا على المسلمين حتى عرف عنه ذلك، وقد جرت أمور أعقب بعضها بعضا جعلته يقترب من الإسلام، وجاءت كتب السير بعدة روايات عن بدء إسلامه ـ نستطيع أن نجمع شتاتها ونلخصها فيما يلى ـ نفهم منها أن أول ما بدا من رقة عمر نحو المسلمين الذين كانوا يعانون منه: لما أخذ المسلمون فى الهجرة إلى الحبشة، وكان فيمن يستعد للهجرة رجل له به صلة قرابة يسمى عامر بن ربيعة، فمر عمر ببيته وهم يتجهزون للهجرة، فتحدث إلى أم عبد الله بنت أبى حثمة قائلا: إنه للانطلاق يا أم عبد الله؟!.

قالت: نعم والله. فقال: صحبكم الله!! وتعلق قائلة: ورأيت منه رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه ـ فيما أرى ـ خروجنا. تقول أم عبد الله ما سبق، وقد سبق أن قالت عنه: «وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا» فلما عاد زوجها قالت: يا أبا عبد الله: لو رأيت عمر آنفا ورقته وحزنه علينا !! فكان رده: أطمعت فى إسلامه؟ قالت: نعم. قال ـ يأسا من إسلامه لسبق إيذائه لمن أسلم ـ: لا يسلم عمر حتى يسلم حمار الخطاب.

وهذه هى الخطوة الأولى التى بدا فيها تجاوب من عمر نحو الإسلام.

أما الخطوة الثانية فتتمثل فيما رواه عمر عن نفسه، حيث قال إنه كان يتردد على بعض الحانات مع بعض رفاقه، فلما ذهب إليها لم يجد أحدا، فتوجه إلى حانة أخرى فلم يجد صاحبها، ففكر فى الاتجاه إلى الكعبة، وهناك وجد رسول

---

(١) كديد: صوت

(٢) راجع الرياض النضرة ج٢ ص٢٧٢ الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية/ بيروت

الله ﷺ يصلى، فقال لنفسه: لو أنى استمعت إليه؟! ثم تسلل بحيث يسمع رسول الله ﷺ وإذا به يسمع رسول الله ﷺ يقرأ سورة الحاقة، يقول عمر: فجعلت أعجب من تأليف القرآن، فقلت فى نفسى: هذا والله شاعر كما قالت قريش، فإذا به يقرأ: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴾[1].

فقلت: كاهن، فقرأ: ﴿ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٣ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾[2].

ويعلق عمر على هذا الموقف بقوله: فوقع الإسلام فى قلبى كل موقع. وهذا الموقف يمثل الخطوة الثانية فى اقتراب عمر من الإسلام وتفكيره فيه بعدما سمع قراءة رسول الله ﷺ.

. ثم جاءت الخطوة الثالثة والأخيرة، وإن كان التيار العام ضد الإسلام فى مكة كان غالبا حتى فكر عمر أن يذهب إلى رسول الله ليقتله، وكان ذلك ذات يوم التقى فيه عمر برجل من قومه يسمى نعيم بن عبد الله، شعر الرجل بأن عمر يبغى أمرا، فسأله: أين تريد يا عمر؟.

قال: أريد محمدا هذا الصابىء الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله.

فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا؟! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟!.

قال: وأى أهل بيتى؟.

قال: ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب فقد ـ والله ـ أسلما وتابعا محمدا على دينه، فعليك بهما، فعاد عمر أدراجه نحو بيت أخته، وكان هناك خباب بن الأرت يعلمها هى وزوجها القرآن، فلما دنا عمر

(١، ٢) الحاقة: ٤٠ ـ ٤٧

من البيت وأحسّ به أهل البيت اختفى خباب، ودخل عمر فقال: ما هذه الهينمة التى سمعتها؟.

فقالا: لا شيء سوى حديث جرى بيننا. فقال عمر: فلعلكما صبوتما؟.

فقال له ابن عمه سعيد وزوج أخته: أرأيت يا عمر إن كان الحق فى غير دينك؟! واشتد الغضب بعمر فوثب على ابن عمه يبطش به حتى إنه وطئه وطئا شديدا، ولم تحتمل فاطمة ما فعله أخوها بزوجها، فحاولت دفعه عنه، فنالتها يده فى وجهها حتى سال منه الدم، فهاج غضبها لما رأت من فعل أخيها وقالت له فى تحد ـ والدم يسيل من وجهها ـ: يا عمر: إن كان الحق فى غير دينك، أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. وكأنما كان مسيل الدم من وجهها قد أصاب عمر بما يشبه الصدمة الكهربائية، فأدرك أنه ما كان ينبغى له أن يفعل ذلك، فجلس وطلب أن يعطوه الصحيفة ليرى ما فيها ـ وكان عمر من القلائل فى قريش الذين كانوا يقرأون ـ فأجابته أخته فى حسم: إنك رجس، ولا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل أو توضأ. وامتثل عمر لطلب أخته فتوضأ، وأخذ فى القراءة. ويبدو من بعض الروايات التى نقلت هذا الحدث أن أخت عمر قد داخلها الأمل فى إسلام عمر، وكان فى الصحيفة الآيات الأولى من سورة طه، فلما قرأ عمر بعضها بدا فى نبرات صوته التأثر بما قرأ حتى قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!! وقد دفع ذلك القول من عمر خبابا أن يخرج من مخبئه، ويقول: يا عمر، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه؛ فإنى سمعته أمس وهو يقول: «**اللهم أيّد الإسلام بأبى الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب**» فالله الله يا عمر.

وهنا كانت نقطة التحول فى حياة عمر ـ رضى الله عنه ـ فقد توجه إلى حيث رسول الله ﷺ مع أصحابه فى دار الأرقم بن أبى الأرقم ليعلن إسلامه وإيمانه بالله ورسوله[1] على الصورة التى سبق عرضها من رواية عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ عن عمر يحكى كيف أسلم.

(١) راجع سيرة ابن هشام ج١ ص٣٤٣ وما بعدها. والسيرة النبوية لابن كثير، ج٢ ص٣٢ ومابعدها. والرياض النضرة ج٢ ص٢٧٥ وما بعدها.

وأراد عمر أن يعلم أهل مكة جميعا أنه قد أسلم، فسأله عن أكثر الناس إشاعة للأخبار، فَدُلَّ على رجل من بنى جمح، فذهب إليه وقال له: أعلمت أنى قد أسلمت؟ فما كاد الرجل يسمع كلامه حتى انطلق مناديا بأعلى صوته: ألا إن ابن الخطاب قد صبأ. وعمر يتبعه قائلا: بل إنى قد أسلمت. واتجه عمر إلى بيت أبى جهل - وكان خاله - فدق عليه الباب، ورحب به، فقال عمر: إنى قد أسلمت، فأغلق أبو جهل الباب فى وجهه وهو يقول: قبحك الله. ولم يكتف عمر بذلك بل إنه أراد أن يُؤْذَى فى سبيل الإسلام، فلم يترك مكانا كان يجلس فيه قبل إسلامه إلا ذهب إليه وأعلن فيه أنه قد آمن بالله ورسوله، وكان ذلك سببا فى أن ينهال عليه من هم فى المجلس ضربا وهو يصارعهم، وكان إذا اجتمعوا عليه يعمد إلى أشرفهم فيثب عليه، وقد جاء فى ذلك أنه لما أسلم قال: **«يا رسول الله علام نخفى ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل؟! فقال النبى ﷺ: «إنا قليل»**.

فقال عمر: والذى بعثك بالحق نبيا، لا يبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلا جلست فيه بالإيمان، ثم خرج فطاف بالبيت، ثم مَرّ بقريش وهم ينظرونه، فقال أبو جهل بن هشام: زعم فلان أنك صبوت.

فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا عبده ورسوله. فوثب المشركون فوثب عمر على عتبة بن ربيعة فبرك عليه وجعل يضربه، وأدخل أصبعيه فى عينيه، فجعل عتبة يصيح، فتنحى الناس عنه، وجعل لا يدنو منه أحد إلا أخذ شريف من دنا منه، ففعل به مثلما فعل بعتبة، فأحجم الناس عنه(١). وكان ذلك قبل أن يخرج بالمسلمين فى صفين هو وحمزة - رضى الله عنهما - لأن الرواية السابقة تقول: إنه بعد أن عاد من جولته مع القرشيين فى مجالسهم تم خروج المسلمين على ما سبقت الإشارة إليه.

ولنا أن نعتبر هذه الأحداث التى تتابعت عقب إسلام عمر مباشرة أول موقف دعوى من عمر، حيث أراد أن يتحدى الكفر فى عقر داره، ويعلن على الملأ

---

(١) راجع الرياض النضرة، ج٢ ص٢٨٣.

جميعا أنه قد آمن بالله ورسوله، وهذا الذى حدث يكشف لنا عن شخصية عمر المتحدية التى عبرت عن نفسها فى مواقف تالية لذلك، ومن هذه المواقف ما يلى:

هجرته إلى المدينة:

روى ابن عباس عن على ـ رضى الله عنهم ـ قال: ما علمت أن أحدا من المهاجرين هاجر إلا مختفيا إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما هاجر تقلد سيفه، وتنكب قوسه، وانتضى فى يده أسهما، واختصر عنزته (حربته) ومضى قِبَلَ الكعبة، والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعا متمكنا، ثم أتى المقام فصلى متمكنا، ثم وقف على الحلق واحدة واحدة، فقال لهم: شاهت الوجوه، لا يرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن تثكله أمه، أو ييتم ولده، أو ترمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى. قال على: فما اتبعه أحد إلا قوم من المستضعفين عَلَّمَهُمْ ما أرشدهم»(١).

إشارته على أبى بكر ـ رضى الله عنهما ـ بكتابة القرآن:

وذلك أنه بعد موقعة اليمامة التى كانت بين المسلمين وبين المرتدين رأى أن كثيرين من حفظة القرآن الكريم قد استشهدوا، فخشى أن يضيع القرآن بموت حفظته. وبعض المصادر تقول: إن عدد المستشهدين من حفظة القرآن فى هذه الموقعة كان سبعين، وبعضها يقول: سبعمائة وسواء كان هذا أو ذاك فإن ذلك يدفع إلى الخشية على القرآن من الضياع، وقد أزعج ذلك عمر، فذهب إلى أبى بكر وأشار عليه بكتابة القرآن. ودار بينهما حوار انتهى باقتناع أبى بكر برأى عمر.

التنافس فى فعل الخير:

وذلك أن عمر أراد أن ينافس أبا بكر فى فعل الخير، فجاء بنصف ماله وتبرع به خدمة للدعوة ومساعدة على النهوض بأمرها، فسأله رسول الله ﷺ: ماذا أبقيت لأهلك يا عمر؟ قال: أبقيت لهم مثل ما جئت به.

---

(١) راجع الرياض النضرة، جـ١ ص٢٨٦

ثم جاء أبو بكر بماله، فسأله رسول الله ﷺ: ماذا أبقيت لولدك يا أبا بكر؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله. فقال عمر: والله لا أنافس أبا بكر فضله وتقدمه ومكانته فى الإسلام، وصحبته لرسول الله ﷺ وقد وضح كل ذلك فى عدة مواقف:

أولها: دعوته إلى مبايعة أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ البيعة العامة فى المسجد.

حيث قال: «إن يكن محمد قد مات فإن الله ـ عز وجل ـ قد جعل بين أظهركم نورا تهتدون به، فاعتصموا به تهتدوا لما هدى الله محمدا ﷺ وثانى اثنين، وإنه أولى الناس بأموركم فقوموا فبايعوه»[1].

وإن كان لنا أن نستنتج فائدة دعوية من موقف عمر هذا فإنه كان حريصا على وحدة المسلمين وحمايتهم من الفرقة والشقاق ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ .

حرصه على حماية المجتمع من الفساد:

كان عمر ـ رضى الله عنه ـ يدرك مسئوليته عن المجتمع الذى أصبح قائما على أمره؛ ولذلك كان إذا جاء الليل وأوى كل إلى فراشه يستريح، ويأنس إلى أهله كان عمر يقضى الليل ساهرا متجولا فى طرق المدينة يتحسس أخبار الناس ويعرف ما يشغلهم، وذات ليلة بينما هو يسير إذا به يسمع صوت امرأة فى بيتها تقول:

تطاول هذا الليل واخضل جانبه ∴ وأرقنى أن لا خليل ألاعبه
فوالله لولا الله تخشى عواقبه ∴ لزل من هذا السرير جوانبه

فلما سمع عمر ما قالت أراد أن يتعرف الحقيقة؛ فقد يكون هناك قضية عامة تكشف عنها هذه المرأة بهتافها فى جوف الليل، وقد بدا من قولها أنها تخاف الله وتخشاه، فضرب باب الدار، فقالت المرأة: من هذا الذى يأتى إلى امرأة مغيبة فى هذه الساعة؟ فقال: افتحى، فأبت، فلما أكثر عليها قالت: أما والله لو بلغ أمير المؤمنين لعاقبك، فلما رأى عفافها قال: افتحى فأنا أمير المؤمنين، قالت: كذبت،

---

(١) الرياض النضرة، جـ١ ص٢٤٠

ما أنت أمير المؤمنين، فرجع بها صوته وجهر بها فعرفت أنه هو ففتحت له، فقال: هيه؟ كيف قلت؟ فأعادت عليه ما قالت.

فقال: أين زوجك؟ قالت: فى بعث كذا وكذا. فبعث إلى عامل ذلك الجند: أن سرح فلانا. فلما قدم عليه قال: اذهب إلى أهلك. ثم دخل على ابنته حفصة، فقال: أى بنية: كم تصبر المرأة عن زوجها؟ قالت: شهرا، واثنين، وثلاثة، وفى الرابع ينفد الصبر. فكان ذلك سببا فى أن أصدر عمر - رضى الله عنه - أمرا بأن لا يغيب زوج فى البعث أكثر من أربعة أشهر، وذلك حرصا على حماية المجتمع من أن يناله فساد من وراء ذلك.

ومن هذه المواقف التى تجرى مع ما سبق فى نطاق واحد أن عمر - رضى الله عنه - كان يمشى فى طرقات المدينة ليلة أخرى فتناهى إليه صوت امرأة تقول:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها ∴ أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

فأرسل فى استدعائه، فإذا هو شاب أحسن الناس وجها، وكان له لمة جميلة، فأمر بشعره فحلق، فإذا هو أكثر حسنا، فقال عمر: والله لا تساكننى فى بلدة يتمناك فيها النساء. ثم أعطاه ما يقوم بشئونه من العطاء وأخرجه إلى البصرة.

تحريه وحرصه على سلامة السنة:

ومن ذلك أن أبا موسى الأشعرى استأذن عليه مرة وثانية وثالثة، وكان عمر مشغولا فى بعض أموره فلم يأذن له، وظن عمر أنه سيدخل، إلا أن أبا موسى عاد من حيث أتى. فقال عمر: ما منعك أن تدخل؟ قال: استأذنت ثلاثا فلم يؤذن لى فرجعت، وقد قال النبى ﷺ: «**إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجع**» فقال عمر: والله لتقيمن عليه بينة. فانطلق أبو موسى يطلب بينة فلقى جماعة من الصحابة فأخبرهم الخبر، وقال: أمنكم من سمعه من رسول الله ﷺ؟ فقام معه أبو سعيد الخدرى وشهد بذلك عند عمر - رضى الله عنه - [1].

---

(١) راجع فتح البارى، ج١١ ص٢٦

حرصه على سيادة العدل:

ومن ذلك أن رجلا جاءه يشتكى الإمام عليا ـ رضى الله عنه ـ وكان جالسا مع عمر ـ رضى الله عنه ـ فطلب عمر إلى على أن يجلس بجانب خصمه قائلا: قم يا أبا الحسن إلى جانب خصمك. فتبين فى وجه على الكراهية، فلما انتهى المجلس ذكر له ذلك وقال له: هل غضبت؟ قال: لا، ولكنى لم أرض لأنك كنيتنى ولم تُكَنِّه.

ومن مظاهر عدله التى سارت بها الركبان أنه جاءه رجل من أهل مصر، فقال: يا أمير المؤمنين: هذا مقام العائذ بك. قال: وما ذاك؟.

قال: أجرى عمرو بن العاص بمصر الخيل فأقبلت فرسى فلما رآها الناس قام محمد بن عمرو بن العاص فقال: فرسى ورب الكعبة، فلما دنا منى الفرس عرفتها، فقلت: فرسى ورب الكعبة. فقام إلىّ يضربنى بالسوط ويقول: خذها وأنا ابن الأكرمين، وبلغ ذلك عَمْراً أباه فخشى أن آتيك، فحبسنى فى السجن، فانفلت منه، وهذا حين أتيتك.

فقال عمر: اجلس. ثم كتب إلى عمرو: إذا جاءك كتابى هذا فأقبل وأقبل معك بابنك محمد. وقال للمصرى: أقم حتى يأتى.

فدعا عمرو ابنه فقال: أحدثت حدثا؟ أجنيت جناية؟ قال: لا. قال: فما بال عمر يكتب فيك؟! فقدما على عمر، فلما رأى عمر محمد بن عمرو بن العاص قال: أين المصرى؟ قال: هأنذا.

قال: دونك الدِّرة فاضرب بها ابن الأكرمين. فضربه حتى أثخنه وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين. ثم قال: أجلها على صلعة عمرو، فوالله ما ضربك إلا بسلطان أبيه، فقال: يا أمير المؤمنين: قد استوفيت واشتفيت وقد ضربت من ضربنى.

قال: أما والله لو ضربته ما حلنا بينك وبينه حتى تكون أنت الذى تدعه.

ثم قال: يا عمرو: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟!.

ثم اتجه إلى المصرى فقال: انصرف راشدا، فإن رابك ريب فاكتب إلىّ.

ومما يتصل بالعدل والمساواة أن ولدين لعمر اشتركا فى الجهاد إلى بعض الجهات، وعاد الجيش ومعه غنائم كثيرة، فاقترضا من القائد بعض المال اتجرا فيه خلال عودتهما إلى المدينة، ولاحظ عمر عند عودتهما أنهما عادا بأموال كثيرة فسأل عن مصدرها، فأخبراه أنهما قد اتجرا فى مال اقترضاه من القائد، وأن هذا هو عائد هذه التجارة. فسأل عمر ولديه: هل أعطى القائد كل أفراد الجيش مثلما أعطاكما؟ فقالا: لا، قال عمر: وهو يستشعر المسئولية التى حملها نحو المسلمين جميعا: إنما أعطاكما لأنكما ابنا أمير المؤمنين. رُدَّا هذه الأموال إلى بيت مال المسلمين.

وهكذا يضرب عمر المثل فى الحرص على العدل وسيادة المساواة بين أفراد الأمة جميعا، لا فرق بين أبناء الخليفة وأى فرد من عامة الناس.

إعطاء القدوة للآخرين فى استشعار المسئولية:

كان عمر ـ رحمه الله ـ يدرك عظم المسئولية الملقاة على عاتقه، وكان يرى أنه مسئول عن كل فرد فى هذه الأمة، بل عن إزالة العقبات أمام الحيوانات حتى أثر عنه قوله: «**والله لو عثرت بغلة بالعراق لسئل عمر لماذا لم يمهد لها الطريق؟!**».

وانطلاقا من الإحساس بهذه المسئولية كان يضرب المثل فى الاقتداء به فى تواضعه ورحمته، فقد رأى فى إحدى الليالى وهو يجوب المدينة وما حولها خيمة فيها امرأة ومن حولها أطفالها يتضاغون من الجوع، وأبصر قدرا على النار، فسأل عما فى هذه القدر، فقالت المرأة: فيها ماء أسكتهم به حتى يناموا، فخرج عمر وعاد مسرعا وهو يحمل كيسا به دقيق وسمن ثم طبخ لهم، ولم يزل عندهم حتى شبعوا، وانصرف وهو يحمد الله على أن أزال كربتهم.

وفى ليلة أخرى رأى رجلا جالسا أمام خيمة، وسمع أنين امرأة، فعرف الرجل أن امرأته فى حالة مخاض، وليس عندها أحد.

فانطلق مسرعا إلى بيته، وطلب من امرأته أن تحمل معها ما يصلح المرأة لولادتها من خرق ودهن، وحمل معه قدرا بها سمن وحبوب، وحمل القدر ومعه زوجه حتى وصلا إلى الخيمة، فدخلت إلى المرأة، وأوقد نارا ووضع القدر عليها وطبخ فيها والدخان يتخلل لحيته، حتى ولدت المرأة، فنادت زوجته من الداخل: بشر صاحبك بغلام يا أمير المؤمنين. فلما سمع الأعرابى أخذته الهيبة، فجعل عمر يهدئ من روعه، وجلس معه حتى أكل، وبعث إلى المرأتين فى الداخل بطعام، ثم انصرف وطلب من الرجل أن يأتيه ليأمر له بما يصلحه.

وكان يترقب أخبار جيش المسلمين فى خراسان، فكان يخرج كل يوم ليرى أى قادم يأتيه بأخبار، وذات يوم قدم فارس فالتقى به عمر يسأله عن أخبار الجيش والرجل يسرع الجرى بفرسه، وعمر يجرى بإزائه ليسمع منه، وظلا كذلك حتى دخلا المدينة، فإذا بالناس يحيون عمر بإمارة المؤمنين، فاضطرب الفارس وقال: هلا أخبرتنى - رحمك الله - أنك أمير المؤمنين؟! فقال عمر: لا عليك.

خشيته من الله وتقواه:

لما عاد عمر من الشام إلى المدينة انفرد وحده فى الطريق يريد أن يتعرف أخبار الناس، فمرّ بعجوز فى خبائها فاتجه نحوها، فلما رأته قالت: يا هذا: ما فعل عمر؟

قال: هو ذا قد أقبل من الشام.

قالت: لا جزاه الله عنى خيرا.

قال: ويحك، ولم؟

قالت: لأنه والله ما نالنى من عطائه منذ ولى إلى يومنا هذا دينار ولا درهم.

فقال: ويحك ما يدرى عمر حالك وأنت فى هذا الموضع؟

قالت: سبحان الله !! ما ظننت أن أحدا يلى على الناس ولا يدرى ما بين مشرقها ومغربها!!

فأخذ عمر يبكى، ويقول: واعمراه! واخصوماه! كل واحد أفقه منك يا عمر؟!.

ثم قال لها: بكم تبيعينى ظلامتك منه؟ فإنى أرحمه من النار.

قالت: لا تهزأ بنا يرحمك الله.

قال لها عمر: ليس بهزء. فلم يزل بها حتى اشترى ظلامتها بخمسة وعشرين دينارا، فبينا هو كذلك إذ أقبل على بن أبى طالب وابن مسعود ـ رضى الله عنهما ـ فقالا: السلام عليك يا أمير المؤمنين.

فوضعت المرأة يدها على رأسها وقالت: وا سوأتاه!! شتمت أمير المؤمنين فى وجهه؟!

فقال لها عمر: لا عليك يرحمك الله. ثم طلب قطعة جلد يكتب فيها فلم يجد، فقطع قطعة من فروة كان لبسها وكتب: بسم الله الرحمن الرحيم «هذا ما اشترى عمر من فلانة ظلامتها منذ ولى إلى يومنا بخمسة وعشرين دينارا، فما تدعى عند وقوفى فى المحشر بين يدى الله ـ عز وجل ـ فعمر منه برىء. شهد على ذلك على بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود، ثم دفع الكتاب إلى على وقال: إذا أنا تقدمتك فاجعلها فى كفنى»[1].

عمر يضرب المثل فى المساواة:

روى أن عمر جاءته برود من اليمن، ففرقها على الناس بردا بردا، ثم صعد المنبر يخطب وعليه حلة منها، فقال: اسمعوا ـ رحمكم الله ـ فقام إليه رجل من القوم فقال: والله لا نسمع، والله لا نسمع.

فقال: ولم يا عبد الله؟

قال: لأنك يا عمر تفضلت علينا بالدنيا، فرقت علينا بردا بردا، وخرجت تخطب فى حلة منها.

(١) الرياض النضرة، ج٢ ص٣٩٠، ٣٩١

فقال: أين عبد الله بن عمر؟

قال: هأنا يا أمير المؤمنين.

فقال: لمن هذان البردان اللذان علىّ؟.

فقال للرجل: عجلت علىّ يا عبد الله، إنى كنت غسلت ثوبى الخلق فاستعرت ثوب عبد الله.

قال الرجل: قل، الآن نسمع ونطيع[1].

هكذا يضرب عمر ـ رضى الله عنه ـ المثل للدنيا كلها فى العدل والمساواة واستشعار المسئولية والخوف من الله، ورعاية مصالح الناس والاهتمام بأمورهم ويقدم القدوة العملية لحكام الدنيا فى التواضع والخضوع للحق، وإذا أردنا أن نحدثهم بمنطق العصر فنقول: يعلم حكام العالم النموذج الأسمى للديمقراطية الحقة، فرحم الله عمر وجزاه عن الإسلام خيرا.

❁❁❁

(١) الرياض النضرة، ج٢ ص٣٨٩

الخليفة الثالث ذو النورين
عثمان بن عفان رضى الله عنه

كان إسلام عثمان - رضى الله عنه - مبكرا، فهو أحد السابقين إلى الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة،وكان سبب إسلامه أن إحدى خالاته كانت حدثته حديثا عن رسول الله ﷺ أخذ يفكر فيه، وكانت له صلة بأبى بكر - رضى الله عنه - فذهب إلى مجلسه وهو مشغول الفكر بما سمعه من خالته، يقول عثمان - رضى الله عنه - :فجلست إليه فرآنى مفكرا، فسألنى عن أمرى وكان رجلا متأنيا، فأخبرته بما سمعت من خالتى، فقال: ويحك يا عثمان، إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل، ما هذه الأوثان التى يعبدها قومنا؟! أليست من حجارة صم لا تسمع ولا تبصر؟! قلت: بلى، فوالله ما كان أسرع من أن مرّ رسول الله ﷺ ومعه على بن أبى طالب يحمل ثوبا، فلما رآنى أقبل علىّ فقال: يا عثمان: أجب الله إلى جنته، فإنى رسول الله إليك وإلى خلقه.

قال: فوالله ما تمالكت حين سمعت قوله أن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله. ولقب بذى النورين؛ لأنه تزوج اثنتين من بنات رسول الله ﷺ وهذا هو الرأى المشهور فى سبب تسميته بذى النورين، ولكن هناك آراء أخرى، يقول أحدها: إنه سمى بذى النورين لأنه كان يتم القرآن فى الوتر، فالقرآن نور وقيام الليل نور.

وقيل: إنما سمى ذا النورين لأنه ذو كنيتين: يكنى أبا عمرو، وأبا عبد الله، وهناك من قال: إنما تسمى بذلك لأنه إذا دخل الجنة برقت له برقتين، وأخيرا

يقول البعض: إنما سمى بذلك لأنه كان له سخاءان، أحدهما قبل الإسلام والثانى بعده[1].

وكان أول من هاجر إلى أرض الحبشة هو وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ وقال عنه النبى ﷺ: «**إن كان عثمان لأول من هاجر إلى الله ـ عز وجل ـ بعد لوط**».

وكان عثمان ـ رضى الله عنه ـ حييا سخيا، محببا فى قريش، وفيه يقول قائلهم: «أحبك الرحمن حب قريش عثمان»[2].

وكان كاتب سر رسول الله ﷺ وكان إذا جلس جلس أبو بكر عن يمينه وعمر عن يساره وعثمان بين يديه، وكان يكتب الوحى لرسول الله ﷺ فقد سئلت أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ إنَّ أحَدَ بنيك يقرئك السلام، ويسألك عن عثمان؛ فإن الناس قد شتموه. فقالت: «لعن الله من لعنه، فوالله لقد كان قاعدا عند نبى الله ﷺ وإن رسول الله ﷺ لمسند ظهره إلىّ وإن جبريل ليوحى إليه القرآن، وإنه ليقول له: «اكتب يا عُثَيْمُ» فما كان الله لينزل تلك المنزلة إلا كريما على الله ورسوله[3].

وكان عثمان هو الذى انتدبه رسول الله ﷺ ليبلغ أسرى المسلمين المستضعفين بمكة، فلما اشتد البلاء على من كان فى أيدى المشركين من المسلمين دعا رسول الله ﷺ عمر فقال: «**يا عمر: هل أنت مبلغ عنى إخوانك من أسرى المسلمين؟**».

قال: بأبى أنت والله ما لى بمكة عشيرة، غيرى أكثر عشيرة منى، فدعا عثمان فأرسل إليهم، فخرج على راحلته حتى جاء عسكر المشركين فعبثوا به وأساءوا له القول، ثم أجاره أبان بن سعيد بن العاص ابن عمه، وحمله على السرج وردف خلفه، فلما قدم قال: يابن عم طُفْ.

(١) راجع الرياض النضرة، ج٣ ص٦ ـ ٨ الطبعة الأولى ـ دار الكتب العلمية/ بيروت

(٢) المصدر السابق، ص٧

(٣) المصدر السابق، ص٢٦.

قال: يابن عم: إن لنا صاحبا لا نبتدع أمرا، هو الذى يكون يعمله فنتبع أثره.. فلم يدع أحدا بمكة من أسرى المسلمين إلا أبلغهم ما قال رسول الله ﷺ[1].

مواقفه الدعوية:

قد خدم عثمان ـ رضى الله عنه ـ الدعوة بماله وأنفق فى سبيل الله أموالا تجل عن الحصر، والإنفاق فى سبيل الله لون من الجهاد، فالله ـ سبحانه ـ يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[2].

وقد وسع الله على عثمان وآتاه مما عنده الكثير، فوظف هذه الأموال التى أعطاه الله إياها فى خدمة الدعوة وصالح المسلمين:

أولا: من ذلك أنه جهز جيش العسرة من ماله الخاص، فقد روى ابن شهاب الزهرى أن عثمان بن عفان ـ رضى الله عنه ـ حمل فى غزوة تبوك على تسعمائة وأربعين بعيرا وستين فرسا أتم بها الألف، وقد جاءت روايات كثيرة عن إسهام عثمان ـ رضى الله عنه ـ فى تجهيز جيش العسرة، مرة تقول: إن رسول الله لما حث على تجهيز جيش العسرة قام عثمان بن عفان فقال: يا رسول الله علىّ مائة بعير وأقتابها فى سبيل الله، ثم حضّ على الجيش، فقام عثمان فقال: يا رسول الله علىّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها فى سبيل الله[3].

وعن حذيفة قال: بعث النبى ﷺ إلى عثمان فى جيش العسرة، فبعث إليه عثمان بعشرة آلاف دينار فصبت بين يديه، فجعل النبى ﷺ يقول بيده ويقلبها ظهرا لبطن ويقول: **«غفر الله لك يا عثمان ما أسررت وما أعلنت، وما هو كائن إلى يوم القيامة، ما يبالى ما عمل بعدها»**[4].

ثانيا: شراؤه بئر رومة وتسبيله للمسلمين، وذلك أن المهاجرين لما قدموا المدينة

---

(١) الرياض النضرة، ج٣ ص٢٣، ٢٤

(٢) الأنفال: ٧٢

(٣، ٤) الرياض النضرة ج٣ ص١٧

استنكروا الماء، وكان لرجل من بنى غفار عين يقال لها رومة، وكان يبيع القربة منها بمُدّ، فقال له رسول الله ﷺ: **«تبيعها بعين فى الجنة؟»** فقال: يا رسول الله ليس لىَ ولا لعيالى عين غيرها، لا أستطيع ذلك. فبلغ ذلك عثمان، فاشتراها بخمسة وثلاثين ألف درهم، ثم أتى النبى ﷺ فقال: اجعل لى مثل الذى جعلت له عينا فى الجنة، قال: نعم. قال: اشتريتها وجعلتها للمسلمين(١).

وهناك رواية أخرى حول بئر رومة تقول: إنها كانت ليهودى، فساومه عثمان فأبى أن يبيعها كلها، فاشترى منه نصفها باثنى عشر ألف درهم فجعله للمسلمين، واتفق على أن يكون لليهودى يوم ولعثمان يوم، فكان إذا كان يوم عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين، فلما رأى اليهودى ذلك قال: أفسدت علىّ ركيتى (بئرى) فاشترى النصف بثمانية آلاف درهم.

ثالثا: توسيع مسجد النبى صلى الله عليه وسلم:

كانت بقعة إلى جانب المسجد، فقال النبى ﷺ: **«من يشتريها ويوسعها فى المسجد له مثلها فى الجنة»** فاشتراها عثمان فوسعها فى المسجد.

قال الأحنف بن قيس: قدمنا المدينة فجاء عثمان وعليه ملاءة صفراء وقد قنع بها رأسه، قال: هاهنا على؟ قالوا: نعم.

قال: هاهنا طلحة؟ قالوا: نعم. قال: أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: **«من يبتاع مربد بنى فلان غفر الله له»** فابتعته بعشرين ألفا أو خمسة وعشرين ألفا فأتيت النبى ﷺ فقلت: قد ابتعته. فقال: **«اجعله فى مسجدنا وأجره لك؟»** فقالوا: اللهم نعم. فقال: أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو: أتعلمون أن رسول الله ﷺ قال: **«من يبتاع بئر رومة غفر الله له»** فابتعتها بكذا وكذا ثم أتيته فقلت: قد ابتعتها. قال: **«اجعلها سقاية للمسلمين وأجرها لك؟»** فقالوا: اللهم نعم.

قال: أنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو: أتعلمون أن رسول الله ﷺ نظر فى

---

(١) راجع الرياض النضرة، ج٣ ص١٨، ١٩

وجوه القوم فقال: «**من يجهز هؤلاء غفر الله له**» ـ يعنى جيش العسرة ـ فجهزتهم حتى لم يفقدوا عقالا ولا خطاما؟ قالوا: اللهم نعم.

قال: اللهم اشهد ـ ثلاثا ـ (١).

رابعا: تشييد مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

كان المسجد على عهد رسول الله ﷺ مبنيا باللبن، وسقفه بالجريد، وعمده خشب النخل، وزاد فيه عمر وبناه على بنائه على عهد رسول الله ﷺ باللبن والجريد وأعاد عمده خشبا، وفى عهد عثمان زاد فيه زيادة كثيرة وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة، وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بالساج.

وفى ذلك توسعة للمسجد لتستوعب زيادة أعداد المسلمين التى تنمو يوما بعد يوم.

خامسا: إجابة دعوة النبى صلى الله عليه وسلم إلى توسيع مسجد الكعبة:

وذلك: أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أهل مكة: «**يافلان: ألا تبيعنى دارك أزيدها فى مسجد الكعبة ببيت أضمنه لك فى الجنة؟**» فقال الرجل: يا رسول الله ما لى بيت غيره، فإن أنا بعتك دارى لا يأوينى وولدى بمكة شىء. فبلغ ذلك عثمان ـ وكان الرجل صديقا له فى الجاهلية ـ فلم يزل به عثمان حتى اشترى منه داره بعشرة آلاف دينار، ثم أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: بلغنى أنك أردت من فلان داره لتزيدها فى مسجد الكعبة ببيت تضمنه له فى الجنة. وإنما هى دارى، فهل أنت آخذها ببيت تضمنه لى فى الجنة؟ قال: نعم، فأخذها منه وضمن له بيتا فى الجنة وأشهد له على ذلك المؤمنين(٢).

وهكذا ترى أن عثمان ـ رضى الله عنه ـ قد جعل ما أفاء الله عليه من نعمة الغنى فى خدمة الإسلام والمسلمين وخدمة الدعوة، فأحيانا يتكفل بتجهيز

---

(١) راجع الرياض النضرة، ج٣ ص١٩

(٢) راجع الرياض النضرة ج٣ ص٢٢

الجيش، وأحيانا يسابق إلى التضحية بالمال ليوسع مسجد الكعبة أو مسجد رسول الله ﷺ وأحيانا يبذل أمواله ليسهل على المسلمين الحصول على ما يحتاجون إليه من ماء يشربونه لا يبتغى بذلك إلا وجه الله تعالى، والفوز بجنته، وإلى جانب ذلك فكان يشارك فى الجهاد فى الأوقات التى يحين فيها موعده وهو متواجد بالمدينة.

وقد ختم أعماله الدعوية بكتابة المصحف على لغة قريش قطعا للخلاف بين المسلمين بسبب اختلاف أوجه القراءة، وقد كون لذلك لجنة برئاسة زيد بن ثابت كاتب الوحى، وعضوية ثلاثة من قريش، وكان يراجع بنفسه ما كتب ليتأكد من صحة المكتوب. رحم الله عثمان وأجزل مثوبته.

❁❁❁

أبو الحسن أمير المؤمنين
على بن أبى طالب

ابن عم النبى ﷺ وأخوه وربيبه وزوج ابنته فاطمة الزهراء - رضى الله عنها - رابع الخلفاء الراشدين.

كانت حياته - رضى الله عنه - تضحية متتابعة فى سبيل الإسلام، أسلم صغيرا. ويرى كثير من كتاب السير أنه أول من أسلم، ولكن المتعارف عليه عند علماء الأمة أن خديجة أول من أسلم من النساء، وعليا أول من أسلم من الصبيان، وأبا بكر أول من أسلم من الرجال، وزيد بن حارثة أول من أسلم من الموالى.

ومن المعقول أن يكون أول من أسلم على الإطلاق خديجة - رضى الله عنها - ثم على، فزيد؛ لأنهم كانوا يساكنون رسول الله ﷺ ثم أبو بكر.

قصة إسلامه:

وفى قصة إسلامه ما يفيد أنه أول من أسلم بعد خديجة - رضى الله عنها - فقد روى صاحب أسد الغابة نقلا عن ابن إسحاق: أنه دخل بعد إسلام خديجة بيوم فوجدها تصلى مع رسول الله ﷺ فقال: يا محمد ما هذا؟

فقال النبى ﷺ: «**دين الله الذى اصطفى لنفسه وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وإلى عبادته وكُفْر باللات والعزّى**».

فقال على: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم، فلست بقاض أمرا حتى أحدث أبا طالب. فكره رسول الله ﷺ أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره.

فقال له: يا على: إن لم تسلم فاكتم. فمكث على تلك الليلة، ثم إن الله أوقع فى قلب عَلِىّ الإسلام فأصبح غاديا إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه فقال: ماذا عرضت علىَّ يا محمد؟.

فقال له رسول الله ﷺ: **«تشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له، وتكفر باللات والعزى، وتبرأ من الأنداد. نفعل على وأسلم»**(1).

والحق أن حياة على ـ رضى الله عنه ـ كلها كانت كفاحا وتضحية فى سبيل الإسلام منذ أن أسلم حتى لقى ربه شهيدا.

وفيما يلى استعراض موجز لبعض مواقفه الدعوية ـ رضى الله عنه ـ فى حياة النبى ﷺ وبعد النبى حتى لقى ربه شهيدا.

مبيته مكان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليلة الهجرة:

وذلك أن قريشا قد حزمت أمرها على أن تختار عددا من شباب قريش يغتالون رسول الله ﷺ حين يخرج من بيته، وقد استعدوا لذلك وأخذوا أماكنهم أمام بيت رسول الله ﷺ وفى أيديهم سيوفهم مشحوذة ليضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه بين القبائل، فلا يستطيع بنو هاشم أن يحاربوا قريشا جميعا ويرضون بالدية، ولكن الله ـ سبحانه ـ أخبر نبيه بما بيتوا العزم عليه، وأمره بالهجرة إلى المدينة فى تلك الليلة، واستدعى رسول اللهَ ﷺ عليا، وأمره أن يبيت فى مكانه تلك الليلة وأن يتسجى ببرده، وأخبره أنه لن يخلص إليه منهم أذى، وأمره أن يرد الأمانات التى عنده لأصحابها ثم يلحق به بعد ثلاث إلى المدينة.

وخرج رسول الله ﷺ والقوم وقوف وقد غشى الله على أبصارهم، وخرج رسول الله ﷺ وهو يتلو قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾(2).

(1) راجع أسد الغابة، ج٤ ص٩٢ كتاب الشعب
(2) سورة يس، الآيتان: ٨، ٩

ووضع التراب على رءوسهم، وظلوا واقفين حتى الصباح، وكانوا من وقت لآخر ينظرون من ثقب الباب فيجدون عليا ـ رضى الله عنه ـ نائما مسجى تحت برد رسول الله فيظنونه هو، حتى هب فى الصباح فاكتشفوا أنهم قد خاب مسعاهم.

وقيام على بهذه المهمة المحفوفة بالمخاطر الجسام يكشف مدى استعداده للتضحية فى سبيل الدعوة وصاحبها ﷺ.

تضحيته فى سبيل الإسلام فى مواقف عدة:

شهدت معارك الإسلام ومواجهته لقوى الباطل مواقف متعددة للإمام على ـ رضى الله عنه ـ كان فيها مثال الفارس الذى نذر نفسه للدفاع عن الإسلام والتضحية فى سبيله فى أيام بدر وأحد والخندق وخيبر وسواها.

فأما يوم بدر فكان على ممن خرج للمبارزة، وأمكنه الله من الوليد بن عتبة وكان له فى ذلك اليوم مع عمه حمزة صولات وجولات.

وفى يوم الخندق تصدى لعمرو بن عبد ودّ لما اقتحم الخندق ودعا للمبارزة حتى أمكنه الله منه، وذهب الله بعدو الله عمرو بن عبد ود إلى النار.

وفى يوم خيبر فتح الله على يديه خيبر بعد أن قال رسول الله ﷺ: «**سأعطى الراية غدا لرجل يحبه الله ورسوله**».

حرصه على المساواة:

فقد كان يوما جالسا مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أيام خلافته فجاء رجل يشكو عليا ـ رضى الله عنه ـ فقال له عمر: قم يا أبا الحسن إلى جوار خصمك، وكان عمر ـ رضى الله عنه ـ قد لمح فى وجه على علامات عدم الرضا.

فلما انتهى مجلس القضاء سأل عمر عليا: هل وجدت فى نفسك لأنى طلبت إليك أن تقف إلى جانب خصمك؟.

قال على: لا، لم يكن ذلك سبب الموجدة، إنما وجدت فى نفسى لأنك كنيتنى ولم تكنّه.

وذلك لأن الكنية تشعر بالتقدير عند العرب، وأحس على أنه لم يتساو خصمه معه لعدم تكنيته.

انصياعه للحق:

لما كان على أمير المؤمنين سقط درعه، فالتقطه يهودى، فلما عرف به على ـ رضى الله عنه ـ قال: هذا درعى، وليس يعنى أنه مادام الخليفة فله أن يأخذ الدرع بما له من سلطان الخلافة، بل رفع الأمر إلى القاضى شريح.

فقال شريح: إيت بشهودك يا أمير المؤمنين. فقال: الحسن. قال القاضى: الحسن ابنك.

قال على: قنبر. قال القاضى: قنبر خادمك.

وذلك أن نظام القضاء فى الإسلام لا يقبل شهادة الابن لأبيه ولا الخادم لسيده وإزاء ذلك أعطى القاضى الدرع لليهودى، فلما رأى اليهودى ذلك أقر بأن الدرع ليس له، وإنما هى لعلى ـ رضى الله عنه ـ وأعادها إليه، ثم كان ذلك سببا لأن أعلن إسلامه.

ومن المواقف الدعوية فى حياة الإمام على ـ رضى الله عنه ـ تصديه لأهل الأهواء والبدع من الخوارج والقائلين بالقدر، وقد أعطى الإمام على ـ رضى الله عنه ـ قدرة على الإقناع وعلما واسعا وفهما عميقا لكتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ وكيف لا وهو الذى تربى فى بيت النبوة ونهل من معينها صبيا ويافعا؟! ولما صار رجلا تزوج بفاطمة ـ رضى الله عنهما ـ وقد هيأ له ذلك فرصة نادرة لم تتهيأ لغيره، فكان ـ كما يقول ـ إذا سأله أجابه وإذا سكت بدأه بالحديث؛ ولذلك كان تميزه فى الفهم والقضاء والمعرفة الواعية بقيم الإسلام ومبادئه. وقد استرعت

تلك الظاهرة بعض معاصريه فسألوه عن سببها، فكان جوابه: «إنى كنت إذا سألته أنبأنى، وإذا سكت ابتدأنى»(١).

ومن التوجيهات التى زود بها رسول الله ﷺ عليا لما بعثه قاضيا إلى اليمن حينما استشعر عظم المسئولية وهو لايزال حدثا، وفى ذلك يقول ـ رضى الله عنه ـ : «بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضيا، فقلت يا رسول الله: ترسلنى وأنا حديث السن، ولا علم لى بالقضاء؟».

فقال: «**إنَّ الله سَيَهْدِى قَلْبَكَ وَيُثَبِّتُ لِسَانَكَ، فإذَا جَلَسَ بَيْنَ يَدَيْكَ الخَصْمَان فلاَ تَقْضِيَنَّ حَتَّى تَسْمَعَ مِنَ الآخر كَمَا سَمِعتَ مِنَ الأول، فَإِنَّهُ أحْرَى أَنْ يَتَبَيَّنَ لَكَ القَضَاءُ**».

قال على: فمازلت قاضيا، وما شككت فى قضاء بعد(٢).

كل ذلك قد أعطى عليا التوفيق فى الاستدلال، والقدرة على الإقناع، ودفع الشبهات، وإسكات من لعبت بعقولهم الأهواء.

ومن ذلك رده على من سأله عن القدر:

لقد سأله رجل: ما تقول فى القدر؟

قال: ويحك، أخبرنى عن رحمة الله، أكانت قبل طاعة العباد؟

فقال الرجل: نعم.

قال على: أسلم صاحبكم، وقد كان كافرا.

فقال الرجل: أليس بالمشيئة الأولى التى أنشأنى بها أقوم وأقعد، وأقبض وأبسط؟

---

(١) راجع الطبقات الكبرى لابن سعد، طبع بيروت ج٢ ص٣٣٨

(٢) راجع معالم السنن للخطابى شرح سنن أبى داود ج١ ص١٦٢ وسنن ابن ماجه ج٢ ص٧٧٤ وفيها «وما شككت بعد فى قضاء بين اثنين» تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى، والاستيعاب ج٨ ص١٥٢ بأسفل الإصابة. تحقيق طه الزينى.

قال على: إنك بعد فى المشيئة.

أما إنى أسألك عن ثلاث، فإن قلت فى واحدة منها: (لا) كفرت، وإن قلت: نعم فأنت أنت.

فمدّ القوم أعناقهم ليسمعوا ما يقول.

فقال له على ـ رضى الله عنه ـ: أخبرنى عنك أخلقك الله كما شئت أو كما شاء؟.

قال: بل كما شاء.

قال: قم فلا مشيئة لك(١).

وهكذا نرى قدرة الإمام ـ رضى الله عنه ـ فى دفع ما دار فى رأس الرجل من شبهة بالحوار والإقناع، والسؤال والجواب الذى جعل الرجل يسلم بما يرى الإمام، وتزول من نفسه الشبهة التى علقت بها من جراء قوله بالقدر.

حجاجه للخوارج وإبطال شبهتهم:

من المواقف الدعوية فى حياة الإمام على ـ رضى الله عنه ـ حواره مع الخوارج لما خرجوا عليه بعد أن كانوا معه ـ وكان ذلك عقب وقعة التحكيم التى لجأ إليها أهل الشام بعد ما رأوا أن الدائرة ستقع عليهم ـ.

وكان الإمام يرى أنهم أخطأوا، وعليه أن يبين لهم الخطأ الذى وقعوا فيه لعلهم يعودون إلى الصواب، وهو بعمله هذا يطبق روح الإسلام فى الدعوة إلى الحق، والتحلى بالصبر، وتوجيه المخطىء لعله يفيق إلى الحق.

وكان الخوارج قد نزلوا قرية يقال لها «حروراء» فتوجه إليهم الإمام على ـ رضى الله عنه ـ وناداهم: يا هؤلاء: من زعيمكم؟ قالوا: ابن الكواء

قال: فليبرز إلىّ.

---

(١) راجع العقد الفريد، ج٢ ص٢٠٢، ٢٠٣

فخرج إليه ابن الكواء فقال له على: يا ابن الكواء: ما أخرجكم علينا بعد رضاكم بالحكمين ومقامكم بالكوفة؟

قال ابن الكواء: قاتلت بنا عدوا لا تشك فى جهاده، فزعمت أن قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار، فبينما نحن كذلك إذ أرسلت منافقا وحكمت كافرا، وكان من شكّك فى أمر الله أن قلت للقوم حين دعوتهم: كتاب الله بينى وبينكم، فإن قضى علىّ بايعتكم، وإن قضى عليكم بايعتمونى، فلولا شكُّكَ لم تفعل هذا والحق فى يدك.

فقال على: يا ابن الكواء: إنما الجواب بعد الفراغ، أفَرغْتَ فأجيبك؟

قال : نعم .

قال على: أما قتالك عدوا لا أشك فى جهاده فصدقت، ولو شككت فيهم لم أقاتلهم. وأما قتلانا وقتلاهم فقد قال الله فى ذلك ما يستغنى به عن قولى.

وأما إرسالى المنافق، وتحكيمى الكافر: فأنت أرسلت أبا موسى مبرنسا، ومعاوية حكم عمراً، أتيت بأبى موسى مبرنسا، فقلت: لا نرضى إلا أبا موسى، فهلا قام إلىّ رجل منكم فقال: يا على لا تعط هذه الدنية فإنها ضلالة؟!

وأما قولى لمعاوية: إن جرنى إليك كتاب الله تبعتك، وإن جرك إلىّ تبعتنى زعمت أنى لم أعط ذلك إلا من شك، فقد علمت أن أوثق ما فى يديك هذا الأمر فحدثنى ويحك عن اليهودى والنصرانى ومشركى العرب أهم أقرب إلى كتاب الله أم معاوية وأهل الشام؟!.

قال: بل معاوية وأهل الشام أقرب.

قال على: أفرسول الله ﷺ كان أوثق بما فى يديه من كتاب الله أو أنا؟

قال: بل رسول الله.

قال: أفرأيت الله ـ تبارك وتعالى ـ حين يقول: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[1].

---

(١) القصص: ٤٩

أما كان رسول الله يعلم أنه لا يؤتى بكتاب هو أهدى مما فى يديه؟.

قال: بلى.

قال: فلم أعطى رسول الله القوم ما أعطاهم؟

قال: إنصافا وحجة.

قال: فإنى أعطيت القوم ما أعطاهم رسول الله.

قال ابن الكواء: فإنى أخطأت، وهذه واحدة، زدنى.

قال على: فما أعظم ما نقمتم على؟

قال: تحكيم الحكمين، نظرنا فى أمرنا فوجدنا تحكيمهما شكا وتبذيرا!

قال على: فمتى سمى أبو موسى حكما؟ حين أرسل أو حين حكم؟

قال: حين أرسل

قال: أليس قد سار وهو مسلم وأنت ترجو أن يحكم بما أنزل الله؟

قال: نعم

قال على: فلا أرى الضلالة فى إرساله.

فقال ابن الكواء: سمى حكما حين حكم؟

قال: نعم إذًا فإرساله كان عدلا، أرأيت يا ابن الكواء لو أن رسول الله ﷺ بعث مؤمنا إلى قوم مشركين يدعوهم إلى كتاب الله، فارتد على عقبه كافرا، كان يضر نبى الله شيئا؟

قال: لا.

قال على: فما ذنبى إن كان أبو موسى ضل، هل رضيت حكمه حين حكم؟ أو قوله إذ قال؟

قال ابن الكواء: لا، ولكنك جعلت مسلما وكافرا يحكمان فى كتاب الله.

قال على: ويلك يا ابن الكواء!! هل بعث عمراً غيرُ معاوية؟ وكيف أحكمه وحكمه على ضرب عنقى؟ إنما رضى به صاحبه كما رضيت أنت بصاحبك، وقد يجتمع المؤمن والكافر يحكمان فى أمر الله، أرأيت لو أن رجلا مؤمنا تزوج من يهودية أو نصرانية فخافا شقاق بينهما ففزع الناس إلى كتاب الله، وفى كتابه ﴿ فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾(1).

فجاء رجل من اليهود أو رجل من النصارى ورجل من المسلمين الذين يجوز لهما أن يحكما فى كتاب الله فحكما؟!

قال ابن الكواء: وهذه أيضا أمهلنا حتى ننظر.

فانصرف عنهم، ثم خرج لهم بعد ذلك فقال: يا ابن الكواء: إنه من أذنب فى هذا الدين ذنبا يكون فى الإسلام حدثا استتبناه من ذلك الذنب بعينه، وإن توبتك أن تعرف هدى ما خرجت منه وضلال ما دخلت فيه.

قال ابن الكواء: إنا لا ننكر أنا قد فُتنّا(2).

دعوته إلى العلم والعمل:

كان على ـ رضى الله عنه ـ قد أوتى عقلا واعيا، وقلبا آمنا، ولسانا معبرا، وكان مسلكه فى الحياة قدوة تتراءى للناس فى السلم والحرب، والشدة والرخاء، والرضا والغضب، والحب والبغض، يحاول من خلالها ترجمة قيم الإسلام وحمل الناس عليه، وكان يدرك أثر العلم فى الرقى الإنسانى، ونتيجة العمل الصالح فى ازدهار المجتمع، ورعاية مصالح الآخرين، ولذلك كانت كلماته وتوجيهاته أدلة هادية للخير داعية إلى الاستقامة على الجادة، وكان يدعو المسلمين إلى أن يضعوا قيم الإسلام نصب أعينهم، لا يصرفهم عنها صارف؛ حتى ينالوا خيرى الدنيا والآخرة.

ومن أقواله فى ذلك: «تعلموا العلم تعرفوا به، واعملوا تكونوا من أهله،

---

(1) النساء: ٣٥

(2) العقد الفريد ج٥ ص١٠٩ ـ ١١١ وتاريخ اليعقوبى ج٢ ص١٩٢ مع اختلاف فى التفاصيل.

الا وإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وإن الآخرة قد أتت مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون.

فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا. الا وإن الزاهدين فى الدنيا قد اتخذوا الأرض بساطا، والتراب فراشا، والماء طيبا.

الا وإن من اشتاق الآخرة سها عن الشهوات، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات، ومن طلب الآخرة سارع إلى الطاعات، ومن زهد فى الدنيا هانت عليه مصائبها، الا وإن لله عبادا شرورهم مأمونة، وقلوبهم محزونة، أنفسهم عفيفة وحوائجهم خفيفة، صبروا أياما قليلة لعقبى راحة طويلة.

إذا رأيتهم صافين أقدامهم تجرى دموعهم على خدودهم يجأرون إلى الله فى فكاك رقابهم، وأما نهارهم فظماء حلماء بررة أتقياء كأنهم القداح، ينظر إليهم الناظر فيقول: مرضى، وما بهم من مرض، ولكنه الأمر العظيم.

إعطاء القدوة فى عدم الاستكانة لإغواء الدنيا:

لم يكن للدنيا عليه سلطان، بل أثر عنه أنه كان يقول: يادنيا غرى غيرى. وكان فى خلافته يبدو كواحد من الناس، بل مثل أقل عامة الناس فى الملبس والمأكل والمسكن، فلما ذهب إلى الكوفة رفض أن ينزل فى قصر الإمارة، ولما الح عليه أصحابه فى ذلك أجاب بحزم: «قصر الخبال لا أنزله أبدا» وفضل أن ينزل فى الأرض الخلاء والدار المهجورة، وكان يلبس الخشن من الثياب، ويطلب إليه أصحابه أن يلبس من الثياب ما يناسب مقام الإمارة فيقول لهم: «هذا الثوب يصرف عنى الزهو ويساعدنى على الخشوع فى صلاتى، وهو قدوة صالحة للناس كيلا يسرفوا ويتبذخوا، ثم يتلو قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾(1).

ذلك أن الدنيا عنده جسر للعبور إلى الدار الآخرة، فمن أصلح فى دنياه عبر الجسر بسلام ووصل إلى دار النعيم، وهى ميدان يتسابق فيه الصالحون إلى

(1) سورة القصص، الآية: ٨٣

الخيرات، يقول في ذلك: «إن المضمار اليوم وغدا السباق، ألا وإنكم فى أيام أمل من ورائه أجل».

فمن قصر فى أيام أمله قبل حضور أجله فقد خاب عمله، ألا فاعملوا لله فى الرغبة كما تعملون له فى الرهبة، ألا وإنى لم أر كالجنة نام طالبها، ولم أر كالنار نام هاربها، ألا وإن من لم ينفعه الحق ضره الباطل، ومن لم يستقم به الهدى حاد به الضلال.

ألا وإن الدنيا عرض حاضر، يأكل منها البرّ والفاجر، وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قادر.

وإن أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل، فإن اتباع الهوى يصدّ عن الحق، وإن طول الأمل ينسى الآخرة»(١).

وليس معنى هذا أن الإمام يرى الانصراف عن الدنيا كما يفعل العاجزون، وإنما يحذر من استعبادها للإنسان، ويرى أنها ميدان يحقق فيه السبق من أخذها بحقها والتزم بتوجيهات الوحى فى التعامل معها، فالعمل الصادق يؤدى إلى النجاة، فهى دار عمل لا دار لهو، وفى ذلك يقول: «الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار نجاة لمن فهم عنها، ودار غنى وزاد لمن تزود فيها، مهبط وحى الله، ومسجد أنبيائه، ومتجر أوليائه، ربحوا فيها الرحمة، واكتسبوا فيها الجنة»(٢).

توجيه أصحابه إلى التمسك بمعالى الأمور:

فى غمرة الصراع بين الإمام على ومعاوية، وما كان يأتيه معاوية ومن معه من أمور لا ترضى عنها قيم الإسلام فى السلم والحرب، غاظ ذلك بعض أصحاب الإمام، ونمى إليه أن اثنين من كبار أتباعه يلعنون معاوية وأهل الشام، فبعث إليهما يأمرهما بالكف عن الشتم واللعن، فقدما عليه وسألاه: يا أمير المؤمنين: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟!.

(١، ٢) راجع: خلفاء الرسول، ص٤٨١ ـ ٤٨٥

أجاب: بلى ورب الكعبة.

قال: فلم تمنعنا من شتمهم ولعنهم؟!.

قال الإمام ـ رضى الله عنه ـ: كرهت لكم أن تكونوا شتامين لعانين، ولكن قولوا: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوى عن الغىّ من لجّ به[1].

❁❁❁

(١) راجع: خلفاء الرسول، ص٤٩٨، ٤٩٩

مصعب بن عمير

مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف، وكنيته أبو عبد الله، أحد السابقين إلى الإسلام، منذ أن كان رسول الله ﷺ في دار الأرقم بن أبى الأرقم، إلا أنه كتم إسلامه خوفا من أمه؛ كان منعما فى صباه وشبابه، ولما علم أهله بإسلامه قيدوه وحبسوه، وظل فى حبسه إلى أن واتته الفرصة فهاجر إلى الحبشة مع من هاجر، ذكر ابن عبد البر عن الواقدى بسنده قال: كان مصعب بن عمير فتى مكة شبابا وجمالا وتيها، وكان أبواه يحبانه، وكانت أمه تكسوه أحسن ما يكون من الثياب، وكان أعطر أهل مكة، يلبس الحضرمى من النعال، وكان رسول الله ﷺ يذكره ويقول: **ما رأيت بمكة أحسن لـمّـة ولا أرق حلة، ولا أنعم نعمة من مصعب بن عمير.**

ولما بايع رسول الله ﷺ أهل يثرب بيعة العقبة، بعث مصعبا إلى يثرب يعلم أهلها القرآن ويدعو إلى الإسلام، حتى ليمكن أن يقال إن مصعبا أول داعية كلفه رسول الله أن يقوم بأمر الدعوة خارج مكة قبل أن يهاجر. واختيار رسول الله ﷺ له ليقوم بهذه المهمة دليل على ما كان يتمتع به من صفات وإخلاص وصدق جعلت رسول الله ﷺ يوجهه إلى يثرب ليمهد الطريق للمسلمين حين يهاجرون إليها.

وفى يثرب كان له دور ملحوظ فى اعتناق السواد الأعظم من سكانها الإسلام على يديه، وكان يصحبه أسعد بن زرارة وينتقلان بين مضارب القبائل والأسر يدعوان إلى الإسلام.

وذات يوم اتجها إلى بيوت بنى عبد الأشهل ـ قوم سعد بن معاذ ـ وكان أسعد ابن زرارة ابن خالة سعد، وكان سعد فى مجلس قومه، فجاءت الأخبار أن أسعد ابن زرارة ومصعبا قد جلسا إلى قومه يدعوانهم إلى الإسلام، فقال سعد لأسيد ابن الحضير: لا أبا لك!! انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا دارينا ليسفها ضعفاءنا، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا؛ فإنه لولا أن أسعد بن زرارة منى حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتى، ولا أجد عليه مقدما.

فأخذ أسيد بن حضير حربته، ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه.

قال مصعب: إن يجلس أكلمه.

فوقف عليهما متشتما قائلا: ما جاء بكما إلينا؟

تسفهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كان لكما بأنفسكما حاجة.

قال مصعب: أو تجلس فتسمع؟ فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته كف عنك ما تكره.

قال: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم به فى إشراقه وتسهله.

ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا فى هذا الدين؟

قالا له: تغتسل فَتَطَّهَّرُ، وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى.

فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وشهد شهادة الحق، ثم قام فركع ركعتين، ثم قال لهما: إن ورائى رجلا إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن: سعد بن معاذ.

ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس فى ناديهم، فلما نظر

إليه سعد بن معاذ مقبلا قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم. فلما وقف على النادى قال له سعد: ما فعلت؟

قال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسا، وقد نهيتهما، قالا: نفعل ما أحببت، وقد حدثت أن بنى حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك، ليخفروك.

فقام سعد مغضبا مبادرا تخوفا للذى ذكر له من بنى حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئا. ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعد مطمئنين عرف أن أسيدا إنما أراد منه أن يسمع منهما.

فوقف عليهما متشتما، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة: أما والله لولا ما بينى وبينك من القرابة ما رمت هذا منى، أتغشانا فى ديارنا بما نكره؟!

وكان أسعد بن زرارة لما أبصر بسعد قادما قال لمصعب: أى مصعب، جاءك والله سيد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان.

فقال له مصعب: أوتقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمرا، ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره. قال سعد: أنصفت. ثم ركز حربته وجلس، وأخذ مصعب يعرض عليه الإسلام، ويقرأ عليه القرآن، فعرفا تأثير ذلك فى أسارير وجهه، وأنه قد اقتنع بما سمع، فسألهما: ماذا تصنعون إذا أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين؟ أجابا: تغتسل فتطهر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلى ركعتين.

فعاد إلى نادى قومه، ومعه أسيد بن حضير، ولما أبصروا به قادما قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم.

فلما وقف عليهم قال: يا بنى عبد الأشهل: كيف تعلمون أمرى فيكم؟

قالوا: سيدنا وأفضلنا رأيا، وأيمننا نقيبة.

قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

يقول راوى هذا الموقف: فوالله ما أمسى فى دار بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة[1]!!

وظل مصعب فى دار أسعد بن زرارة يواصل الدعوة إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور أهل يثرب إلا دخلها الإسلام، وهكذا قام مصعب بهذا الواجب على خير وجه.

ويلاحظ أن مصعبا قد استعمل أسلوب الحكمة فى عرض قضية الإسلام، فصادف قلوبا نقية مستعدة لقبول الهداية.

وظل مصعب ـ رضى الله عنه ـ يدعو للإسلام بلسانه وبيانه، ولما أقبلت قريش برجالها وعددها وعدتها فى بدر وأحد كان فى مقدمة الصفوف، وكان يحمل لواء المهاجرين يوم بدر، ويوم أحد أبلى بلاء حسنا حتى استشهد راضيا مرضيا.

ومن المثير للدهشة أن هذا الذى كان يرتدى أغلى الثياب، ويعيش فى سعة ورغد فى مكة قد ترك ذلك كله، ولما استشهد يوم أحد لم يكن له إلا ثوب واحد إذا غطى به رأسه ظهرت رجلاه، وإذا غطى به قدماه ظهرت رأسه. فأشار رسول الله أن يوضع على قدميه بعض الحشائش، وكان اللواء معه، فلما استشهد أمر رسول الله بإعطائه لعلى بن أبى طالب.

***

(١) راجع: سيرة النبى لابن هشام، ج٢ ص٤٣ ـ ٤٥ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد.

قائمة المراجع

القرآن الكريم

١ ـ الأدب المفرد — للإمام البخارى

٢ ـ الاستيعاب فى تاريخ الأصحاب — لابن عبد البر

٣ ـ أسد الغابة فى تاريخ الصحابة — لابن الأثير

٤ ـ إنجيل برنابا — لبرنابا

٥ ـ أنساب الأشراف — للبلاذرى

٦ ـ البداية والنهاية — لابن كثير

٧ ـ تاريخ الأمم والملوك — لابن جرير الطبرى

٨ ـ تاريخ اليعقوبى — لليعقوبى

٩ ـ تهذيب تاريخ دمشق — لابن عساكر

١٠ ـ خلفاء الرسول — لخالد محمد خالد

١١ ـ الدين — د. محمد عبد الله دراز

١٢ ـ الرياض النضرة فى مناقب العشرة — أبو جعفر أحمد المشهور بالمجد الطبرى

١٣ ـ زاد المعاد فى هدى خير العباد — لابن القيم

١٤ ـ سنن ابن ماجه — لابن ماجه

١٥ ـ السيرة النبوية　　لابن كثير
١٦ ـ السيرة النبوية　　لابن هشام
١٧ ـ صحيح مسلم بشرح النووى　　الإمام مسلم
١٨ ـ طبقات ابن سعد　　لمحمد بن سعد
١٩ ـ العقد الفريد　　لابن عبد ربه
٢٠ ـ فتح البارى شرح صحيح البخارى　　لابن حجر العسقلانى
٢١ ـ فقه السنة　　الشيخ سيد سابق
٢٢ ـ القاموس المحيط　　للفيروز أبادى
٢٣ ـ قصص الأنبياء　لابن كثير.　　تحقيق د. مصطفى عبد الواحد
٢٤ ـ الكنز الثمين فى أحاديث النبى الأمين. عبد الله الصديقى الحسنى
٢٥ ـ لسان العرب　　لابن منظور
٢٦ ـ الله　　عباس محمود العقاد
٢٧ ـ مختصر صحيح مسلم　　للمنذرى
٢٨ ـ مروج الذهب　　للمسعودى
٢٩ ـ مسار الدعوة فى العهد المكى　　د. محمد إبراهيم الجيوشى
٣٠ ـ معالم السنن　　للخطابى
٣١ ـ النكت والعيون　　للماوردى
٣٢ ـ نهاية الأرب　　للنويرى
٣٣ ـ وسائل الدعوة　　د. محمد إبراهيم الجيوشى

المحتويات